أمـراض القـلـوب

خمسة وثلاثون مرضًا من أمراض القلوب وطرق علاجها

راجعه وقدم له

فضيلة الشيخ العلامة

مُصْطَفَى بن العَدَوي

تأليفُ

أم تميم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الشيخ مصطفى العدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد،،،

فهذه كلمات طيبة ونافعة (بإذن الله) في بيان أمراض القلوب ودوائها وطرائق الشفاء منها، أعدتها أختنا في الله الداعية إلى الله على بصيرة نحسبها كذلك ولا نزكيها على الله- أم تميم- حفظها الله تعالى وبارك فيها وشكر مساعيها، وقد راعت فيها- وفقها الله- سلامة المادة العلمية وصحة الأحاديث وإن كانت قد اعتمدت تصحيحات بعض أهل العلم الأفاضل فتركت لها ما اختارته إذ الخطب في ذلك يسير وما لزم التنبيه عليه نبهت عليه وما وسع الأمر فيه تركته واسعًا.

والله أسألُ أن يجزها خيرًا على ما بذلت من جهد وما سطرت من طيب الكلم، كما أسأله سبحانه أن يوفقها في مسيرتها العلمية الدعوية وأن يهدي بها ويزيدها هدى وتوفيقًا وسدادًا، فهي على ثغر من الثغور أعانها الله عليه وثبت الله أقدامنا وأقدامها على الحق وبارك الله لها في زوجها وذريتها... آمين.

وصلَّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد،،

فهذه مجموعة محاضرات عن أمراض القلوب قمت بإلقائها في المساجد وقد ألحت عليَّ الطالبات إلحاحًا شديدًا من أجل أن أقوم بنسخها وعملها كتابًا لشدة احتياجهن لهذا البحث كما قلن.

* هذا ولا يخفي أن القلبَ يمرضُ بالذنوب والمعاصي كما يمرض البدن مع الفارق الكبير بينهما، فمريض البدن إذا صبر واحتسب كان ذلك له أجرًا وطهورًا من السيئات وربما رفع بهذا المرض درجات، وأدلة ذلك كثيرة في الكتاب والسنة.

* أما مريض القلب فعلى خطر عظيم، إن لم يتداركه الله تعالى برحمته وعفوه وإحسانه بأن يبصره بمرض قلبه وييسر له التوبة، وذلك إذا علم المولى عز وجل من العبد الصدق في طلب التوبة.

* ومكمن الخطر أن أمراض القلوب تفسد العمل وتحجب العبد عن العمل، ففساد العمل: يكون إما بالشبهات: كالبدع والنفاق العقدي والقنوط من رحمة الله... إلى غير ذلك من أمراض الشبهات، وإما بالشهوات كاتباع الهوى والعجب والكبر والغفلة ... وما أشبه ذلك.

* أما حجب العبد عن العمل: فلأنه من المعلوم أن الذي أُبتِلِيَ بمرض في بدنه لا يستطيع أن يبذل الجهد الذي يبذله من رُزق معافاة البدن، وكذلك مريض القلب لا يقوى على القيام بالطاعات التي يقوم بها سليم القلب وإن تيسرت له الأسباب التي تعينه على الطاعة، فتجده عنده وقتًا ولا يذهب لدروس العلم أو لحفظ القرآن، فتمر الأيام والشهور، ولا ينظر في كتاب الله وقد يسهر الليل كله ولا يقوم لدقائق معدودات يناجي فيها ربه، والطامة الكبرى أن مريض القلب قد يتهاون في أداء الفروض من صلاة وصيام وزكاة، فقد يملك المال ولا يؤدي حق الله فيه من زكاة وصدقة، ومع توافر المال قد يكون معافي في بدنه ولا يحج ولا يعتمر ولا يسعى لنفع المسلمين بأي وجه من الوجوه، وما ذلك إلا لمرض قلبه.

* وإذا كان الأمر كذلك فإن البحث في أمراض القلوب من الأهمية بمكان فلو ملك العبد كنوز الأرض مع فساد القلب فلن تغني عنه من الله شيئًا قال الله تعالى:(يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ (٨٨) إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

* وانطلاقًا مما تقدم، فقد عزمت- بحول الله وقوته وبعد استخارته- على عمل كتاب يحوي هذه الأمراض وطرق علاجها مع العلم بأن علماء السلف اعتنوا بالبحث في أمراض القلوب وقاموا بتدوينها ولكن في كتب متفرقة ليس من السهل على كل مسلم جمعها.

هذا ، والله أسألُ أن يجعلَ هذا العملَ سببًا في صلاح قلبي ، وقلوب

عباده المؤمنين، ويدخلنا برحمته وفضله وجوده وكرمه في عباده الصالحين.

* وختامًا: لا يسعني إلا أن أسأل الله العظيمَ الخيرَ الكثيرَ والثوابَ الجزيلَ والعمرَ الطويلَ للعالم الجليل شيخي الكريم العلامة المحدث الفقيه/ مصطفى بن العدوي- حفظه الله- على ما بذل من جهد ووقت في مراجعة الكتاب.

* وقد تفضل مشكورًا فضيلة الشيخ العلامة المحدث/ أبو إسحاق الحويني بمراجعة الكتاب، وقد كان له بعض التعليقات كتبها في حاشية الكتاب، فتركتها كما هي، فجزاه الله عني وعن المسلمين خيرًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الْمَرَضُ الأوَّلُ: الشرْكُ الأكْبَرُ

الشَّرْكُ مَرَضٌ خَبِيْثٌ مِن أَمْرَاضِ القُلُوبِ بَلْ هُوَ أَخْطَرُ الأَمْرَاض التِي تُصُيْبُ القلبَ عَلَى الإطلاق وَهُوَ أكبرُ الكبائرِ، فَمَنْ اعتقدَ بِقلبِه أنَّ معَ الله إلهًا آخرَ أو أَنَّ لله نِدًّا[1] أو جوزَ أنْ يعبدَ مع الله غَيرَه مِن شَجرٍ أو حَجَرٍ أو شَمسٍ أو قمرٍ أو ملكٍ أو اعتقدَ أنَّ أحدًا يَملكُ لَهُ ضُرًّا أو نَفعًا أو حياةً أو نشورًا فقد أَشْرَكَ شِركًا أكبرَ وسواء أَكَانَ هَذَا الشَّريكُ المزعومُ نبيًّا مرسلاً أم ملكًا مقربًا أم شيخًا أم وليًّا من الأولياء- حيًّا كَانَ أم ميتًا- فكل ذَلِكَ من الشَّرْكِ الأكبرِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كتابِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] والآيات فِي ذَلِكَ كثيرة.

فمَن أشركَ بالله ثُمَّ ماتَ مشركًا فَهو كافرٌ من أصحابِ النَّار قَطعًا كَمَا دلَّت الآياتُ عَلَى ذلكَ، أمَّا من تابَ من الشَّرْكِ قبل مَوتِه فَإنَّ الله يتوبُ عَلَيْهِ لأنَّه هو التوابُ الرحيمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعَزَّ وَجَلَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ فِي صحيحهما من حديثِ أَبِي بَكرةَ أَنَّ

---

(١) الند: الشبيهُ- يقالُ: فلان ند فلان ونديده أي: مثله وشبهه- من كلام ابن القيم- فتح المجيد (ص ٨٧).

رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَلا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكبائرِ، ثَلاثًا**» قالُوا: بَلى يا رسولَ الله! قَالَ: «**الإشراكُ بالله وَعُقُوقُ الوَالديْنِ**- وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ- **أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ...**»[1] الشاهدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أخبرنا بأن الشِّرْكَ الأكبرَ - وَهْوَ الكفرُ الأكبرُ- أكبرُ الكبائرِ، وَقَالَ ﷺ: «**اجْتَنبوا السّبْعَ المُوبِقَات.. وَذَكَر مِنْهَا: الشَّرْكَ بالله**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (١٨٩) من حديث أبي هريرة.

الْمَرَضُ الثاني: الرِّيَاء

الرِّيَاءُ: مشتقٌ من الرؤية، ومقصودُ المرائي طلبُ المنزلةِ في قلوب العبادِ والسعي وراءَ لذةِ المحمدةِ والفرارِ من ألم الذم والطمع فيما عندَ الناسِ.

واعلم أنَّ الرِّيَاءَ محبطٌ للعملِ وسببٌ لغضب الملكِ الجبارِ الكبير المتعالِ

هَذَا، والرِّيَاءُ قِسْمَانِ:

القسمُ الأوَّلُ: الرِّيَاءُ المحضُ:

هو ألَّا يكونَ مرادُ المرائِي الثوابَ أصلاً، فيصَلي ليُقَالَ إنَّهُ مِن المصلين ولو خَلا بنفسِهِ لم يصلَّ وكذا يتصدقُ ليُقَالَ جوادٌ ويجاهدُ ليُقَالَ شجاعٌ ويحجُ ليُقَالَ حاجٌ، وهكذا فَهُو يلتمسُ من ذَلِكَ إطلاقَ الألسنِ بالثناءِ والمدح عَلَيْهِ، فمن كانت تلك حالهُ فَهَذا شَرُّ النَّاسِ وأولُ من تُسَعَّرُ به النَّارُ(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ

---

(١) قَالَ رسول الله ﷺ: «إنَّ أولَ الناسِ يُقضى يومَ القيامةِ عَلَيْهِ رجلٌ استشهدَ، فأتى به فعرفه نعمهُ فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قِيلَ ثم أمر به فسحب عَلى وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قِيلَ ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عَليهِ وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قِيلَ ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار» رواه مسلم (١٩٠٥) والنسائي (٣١٣٧).

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون: ٤-٦]، وَقَالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

قَالَ الإمامُ الذَّهبِيُّ:

الأعمالُ الَّتِي عملوها لغِير وجْهِ الله تَعَالَى أبطلنَا ثوابَهَا وجعلنَاهَا كالهباءِ المنثورِ وَهُوَ الغبارُ الذِي يُرى فِي شُعَاعِ الشَّمسِ.

قَالَ بعضُ الحكماءِ: مَثَلُ الَّذِي يَعملُ للرياءِ والسمعةِ كمثل الَّذِي يملأُ كيسَهُ حَصى ثُمَّ يدخلُ السوقَ ليشتري بِهِ فإذا فَتحُه قدامَ البائعِ فإذا هو حَصَى وَضُرِبَ بِهِ وَجهُهُ وَلا منفعةَ لَهُ في كيسِهِ سوى مقالةِ النَّاس لَهُ: ما أملأَ كيسَه وَلا يعطي بِه شَيئًا فكذَلِكَ الذِي يعملُ للرياءِ والسمعةِ فليس لَهُ من عملِهِ سِوى مقالةُ النَّاسِ وَلا ثوابَ لهُ في الآخرة[١].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ وَمَنْ رَاءَى رَاءى اللهُ بِهِ**»[٢]، وقال ﷺ: «**رُبَّ صَائم لَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إِلاّ الجوعُ والعطشُ وَرُبَّ قَائِم لَيْسَ لَهُ مِن قِيامِهِ إِلّاَ السَّهَرُ**»[٣].

القسم الثاني من الرياء: رياء الشّرْك:

وهو أنْ يكونَ مرادُهُ من العملِ الثوابَ وأيضًا مدحَ النَّاسِ لهُ عَلَى هَذَا العملِ وثناءَهُم عَلَيْه، كمن يصلي بالنَّاسِ يبتغِي الأجْرَ عَلَى إمامَته المصلين وأيضًا يريدُ الرياسةَ أو يريدُ أنْ يُقَالَ: ما أجمل صوتَه ما أخشعه

---

(١) الكبائر للإمام الذهبي (ص: ١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٩) ومسلم (٢٩٨٦).

(٣) رواه الدارمي (٢٧٢٠) وأحمد في المسند (٢/٣٧٣) وابن خزيمة في صحيحه (١٩٩٧) وغيرهم.

عند تلاوةِ القُرْآنِ وما أشبه ذَلِكَ من الآفاتِ أو كالَّذِي يتصدقَ يريدُ أجرَ وثوابَ الصدقة من الله ولكن يطمعُ في مدح النَّاس إيَّاهُ لجودِهِ، وقِس عَلَى هَذَا جميعَ الأعمالِ الظاهرةِ والباطنة يعملُ العملَ لله يَرجو ثوابَ الله ويريدُ المدحَ من النَّاس أو أيَّ غرض من الأغراض فهَذَا محبطٌ عملِه.

تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قاعدةٌ أصوليَّةٌ: «إنَّ النَّكِرةَ في سياقِ النَّهي تُفيدُ العمومَ» فَقَولُهُ سُبْحَانَهُ: «أحدًا» نكرةٌ في سياقِ النَّهي فتعمُّ وهَذَا العمومُ يتناولُ الأنبياءَ والملائكةَ والصالحينَ والأولياءَ وغيرَهُم، فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يشركَ معَ اللهِ أحدًا في أيِّ عبادةٍ.

وَقَالَ ﷺ: «**قالَ اللهُ تباركَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عَن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عملاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعي غَيري تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكُم وَالشِّرْكَ الأَصْغَرَ**» **قالوا: يَا رَسُول الله وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ تُجازَي العِبادُ بِأَعْمَالهم: اذْهبُوا إِلَى الذَّينَ كُنتُم تراءونَهُم بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَانظروا هَل تَجِدُونَ عِنْدَهُم جَزَاءً**[2].

---

(١) أخرجه مسلم (**٢٩٨٥**) وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (**٥/ ٤٢٩**) والبيهقي في الشعب (**٦٨٣١**) وقال الشيخ الألباني- رحمه الله – في الصحيحة (**٩٥١**) وهَذَا إسناده جيد- نقلاً من حاشية الكبائر للذهبي- أشرف عَلَى تحقيقه شيخنا- حفظه الله.

دُررٌ لابن الجوزيّ فِي كَشفِ الرّيَاء(١)

يقولُ: قد يكونُ الواعظُ صادقًا، قاصدًا للنصيحةِ إلاَّ أنَّ مِنهم مَن شربَ الرئاسة فِي قلبِه مع الزمانِ فيحبُّ أنْ يُعظمَ.

وعلامتُهُ: أَنَهُ إذا ظهرَ واعظٌ يتوبُ عَنْهُ أو يعينه عَلى الخلق كَرهَ ذلِكَ ولو صحَّ قصدُهُ لم يكرَه أن يعينَه عَلَى خلائقِ الخَلقِ.

وقد لبَّسَ إبليسُ عَلَى أقوامٍ من المحكمين فِي العلمِ والعملِ من جهةٍ أخرى، فحسن لهم الكبرَ بالعلمِ والحسدِ للنظيرِ والرَّيَاء لطلب الرياسةِ، فتارةً يُريهم، أن هَذَا كالحق الواجبِ لهم وتارة يقوي حب ذَلِكَ عِنْدهم فلا يتركونه مع عِلْمِهم بِأَنَّه خَطأ.

وعلاجُ هّذَا لمن وفق: إدمانُ النظرِ فِي إثم الكبرِ والحسدِ والرَّيَاءِ، وإعلامُ النفسِ أن العلمَ لا يدفع شرَّ هَذِهِ المكتسبات بل يضاعفُ عذابَها لتضاعف الحجةِ بها، ومن نظر فِي سيرِ السَّلفِ من العلماءِ العاملينَ استقلَّ نفسَهُ فلم يتكبر ومن عرفَ اللهَ لم يراء ومن لاحظ جريانَ أقدارِه عَلَى مقتضى إرادَتِه لم يحسدْ.

ومن ذَلِكَ من يَظهرُ من التواجدِ والتخاشعِ: زِيَادةً عَلَى ما فِي قَلبِه وكثرةِ الجمعِ توجبُ زيادةَ تَعلم، فتسمح النفس بفضل بكاء وخشوع، فمن كَانَ منهم كَاذبًا فقد خسرَ الآخرةَ ومن كَانَ صادقًا لم يسلم صدقُه من رياء يخالِطَهُ.

---

(١) ملتقط من تلبيس إبليس (١٢٨) وما بعدها باختصار.

أما الرِّيَاءُ فلا عذرَ فيه لأحدٍ: وَلاَ يصلحُ أن يجعلَ طريقًا لدعايةِ النَّاسِ وقد كَانَ أيوبُ السختياني إذا حدثَ بحديثٍ فرّقَ ومسحَ وجهَهُ وَقَالَ: ما أشد الزُّكَام[1]!! وبعد هَذَا فالأعمالُ بالنياتِ والناقدُ بصيرٌ،وكم من ساكتٍ من غيبةِ المسلمينَ إذا اُغتيبوا عِنْدَهُ فرحَ قلبُهُ وَهُوَ آثمٌ بِذَلِكَ.

وقد لبَّسَ إبليسُ عَلَى الكاملينَ فِي العلومِ، فيسهرون ليلَهُم ويدءبون نهارَهُم فِي تصانيفَ العلومِ ويريهم إبليسُ أنَّ المقصودَ نشرُ الدينِ ويكون مقصودهم الباطن انتشار الذكر وعلو الصيت[2] والرياسةِ.

وينكشفُ هَذَا: التلبيس بأنه لو انتفع بمصنفاته النَّاس من غير تردد إليه أو قرئت عَلَى نظيره فِي العلمِ فِرحَ بِذلِكَ، إن كَانَ مرادُهُ نشرَ العلمِ.

وقد قَالَ بعضُ السَّلفِ: مَا من علمٍ علمتُه إلا حببت أن يستفيدَه النَّاسُ من غير أن يُنسبَ إليَّ[3].

ومنهم من يفرحُ بكثرةِ الأتباع: ويلبسُ عَلَيْهِ بأن هَذَا الفرحَ لكثرة طلابِ العلمِ وإنَّمَا مرادُه كثرةَ الأصحابِ واستطارة الذكرِ.

---

(١) على المسلم الفطن أن يسعى لتحقيقِ الإخلاصِ ودفعِ الرِّيَاء ما استطاع إِلَى ذلك سبيلاً شرط أن يكون ذلك بالضوابطِ الشَّرْعيَّةِ، فلا يجوز أن يقترفَ معصيةً فرارًا من أخرى. فلا يجوزُ الكذب فرارًا من الرِّيَاءِ أو من غيره، أما السختياني: فقد عرض بقوله: ما أشد الزكام ولم يكذب لأن البكاء يُسبب الزكام، والله أعلم.

(٢) قال رسولُ الله ﷺ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار فالنار» صحيح سنن ابن ماجه (٢٥٤).

(٣) هذا من كلام الشافعي- رحمه الله- رواه أبي حاتم في مناقب الشافعي- كذا قَالَ العلامة الشيخ/ أبو إسحاق الحويني عند مراجعته لهَذا الكتاب.

ومن ذَلِكَ العجبُ بكلماتِهم وعلمِهم: وينكشفُ هَذَا التلبيسُ بأنَّه لو انقطعَ بعضُهم إِلَى غيرِه ممن هو أعلمُ مِنهُ ثقل ذَلِكَ عَلَيْهِ، وما هَذِهِ صفةُ المخلصِ في التعليم، لأنَّ مَثَلَ المخلصِ مثلُ الأطباءِ الذين يُداوون المَرضَى لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِذا شُفي بعضُ المَرضى عَلى يدِ طبيب فرحَ الآخرُ، وقَد ذَكرنا آنفًا حديثَ ابن أبي ليلى ونعيده بإسنادٍ آخر عن عبدِ الرَّحمن بن أبي ليلى قَالَ: أدركتُ عشرينَ ومائةً من أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ من الأنصارِ ما منهم رجلٌ يسألُ عن شيءٍ إلاَّ وَدَّ أنْ أخَاهُ كَفَاهُ، وَلاَ يحدثُ بحديثٍ: «**إلاَّ وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ**».

وإِنَّمَا كانت هَذِهِ سَجِيَّةُ السَّلفِ لغشيتهم لله عَزَّ وَجَلَّ وخوفِهِم مِنهُ وَمَنْ نظرَ فِي سيرتِهِم تأدَّبَ. انتهى.

ما سببُ الوقوعِ فِي الرِّيَاءِ؟

الوقوعُ فِي الرِّيَاءِ لَهُ أسبابٌ كثيرةٌ أهمُّهَا ضعفُ البصيرةِ بأسماءِ الله تَعَالَى وصفاتِه، إذ غابَ عن العبدِ معرفةُ أنَّ اللهَ تَعَالى عالمُ الغيبِ والشهادةِ وَأَنَّهُ يعلمُ السِّرَّ وأخفَى وأنَّه سُبْحَانَهُ يعلمُ ما كَانَ وما هُو كائن ومَا سيكون، إذ جهلِ العبدُ أنَّ الله سُبْحَانَهُ بيدِه خزائنُ كُلِّ شيءٍ ، فلا بدَّ أن يقعَ في الرِّيَاءِ، لأنَّ المرائي يَبتغِي غرضًا من الأغراضِ، كطلبِ الجاهِ- وَهُوَ طلبِ المنزلةِ فِي قلوبِ العبادِ- أو حبِ الرياسةِ أو حبِ المدح والتعظيم أو الهروبِ من المذمةِ كالَّذي يتركُ السؤال خشيةَ أنْ يُقَالَ: جاهلٌ أو يُفتي بغيرِ علمٍ حَتَّى لا يُقَال: كيف لا يعرفُ مثل هَذِهِ المسألةِ وما أشبه ذَلِكَ من الحرصِ عَلَى طلبِ المحمدةِ أو الفرارِ من المذمة وكل

ذَلِكَ من الرِّيَاءِ، ولو تأمَّل قولَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] ، مَا لجأَ لغيرِ الله لأنْ هَذِهِ الآيةَ متضمنةٌ لكنزٍ من الكنوزِ وَهُوَ أَنَّ كُلَّ شيءٍ لا يطلبُ ممن عِنْدَهُ خزائنه كَمَا قَالَ ابنُ القيم فِي تفسيرِهَا[1].

لو علمَ العبدُ أنَّ اللهَ مالكُ الملكِ يُؤتي ملكَه من يشاءُ وينزعُ ملكَه ممن يشاءُ يرفعُ أقوامًا ويضعُ آخرينَ، وأنَّ قلوبَ العبادِ بَيْنَ إصبعين من أصابعِ الرَّحمن يُقلبها كيف يشاءُ، لو أيقن أنَّ البشرَ لا يملكون لأنفهسم نفعًا وَلاَ ضرًا وَلاَ موتًا وَلاَ حياةً وَلاَ نشورًا وأنَّ ما فوقَ الترابِ ترابٌ، مع مداومةِ مطالعةِ أسماءِ وصفاتِه كَانَ ذَلِكَ سببًا- بإذن الله- فِي تبدد ظلمةِ الرَّيَاءِ من قلبِه وإشراقِ نورِ الإخلاصِ واللهُ المستعانُ.

فائدةٌ:

قد يتخلص العبدُ من حبَ الدُّنْيَا وزينتِهَا فتجده صوَّامًا قوَّامًا يقرأُ القُرْآنَ ويسعى إِلَى مجالسِ الذكرِ لا يلتفتُ قلبُه إِلَى السيارات وَلاَ الفيلات وَلاَ ما أشبه ذَلِكَ وَلاَ يسعى لاقتنائِها، فتراه عَلَيْهِ علاماتُ الزهدِ فِي مظهرِه وفي مأكِله وملبسِه ومسكنِه، ومع ذَلِك تجده أبعدَ النَّاسِ عن اللهِ، لماذا؟

لأَنَّه زَهِدَ فِي الظَّاهرِ ولم يزهد في حظوظِ النفس من حبَّ المدحِ والثناءِ وحبِ الجاهِ والرياسةِ وكثرةِ الاتباعِ وإلى غير ذَلِكَ من أمراضِ

---

(١) انظر فوائد الفوائد.

القلوب فينخدع بزهدِ الظَّاهرِ فيظن أَنَّهُ مخلصٌ وَهُوَ ليس كذَلِكَ فأعظمُ أنواعِ الزهدِ هُوَ الزهدُ فِي الحظوظِ وإلا فنبيّ الله سليمانَ كَانَ عِنْدَهُ ملكٌ وَهُوَ أزهدُ النَّاسِ، والصحابةُ الكرامُ كَانَ منهم الأثرياءُ وهو أفضلُ النَّاسِ بعدَ الأنبياءِ،والمخلصُ من أصلحَ سريرتَه قبل علانيتِه.. فتأمل.

ما حكمُ العبادةِ إذا خالطَهَا الرّياءُ؟

هُو عَلَى ثلاثةِ أوجهٍ:

الأولُ: أن يكونَ الباعثُ عَلَى العبادةِ مراءاةَ النَّاسِ من الأصلِ، كمن قامَ يُصلي من أجلِ مراءةِ النَّاسِ ولم يقصد وجهَ الله فهَذَا شركٌ والعبادةُ باطلةٌ.

الثاني: أن يكونَ مُشاركًا للعبادةِ فِي أثنائِها، بمعنى أن يكونَ الحاملُ لَهُ في أولِ أمره الإخلاصَ لله ثُمَّ يطرأ الرِّيَاءُ في أثناء العبادةِ فإن كانت العبادةُ لا ينبني آخرها عَلَى أوَّلها، فَأوُلها صحيحٌ بكلِ حالٍ والباطلُ آخِرُهَا، مِثَالُ ذِلِكَ: رَجلٌ عِنْدَهُ مائةُ ريالٍ قد أعدَّهَا للصدقةِ فتصدق بخمسينَ مخلصًا وراءى فِي الخمسين الباقيةِ فالأولَى حكمُهَا صحيحٌ والثانيةُ باطلةٌ.

أَمَّا إذَا كَانت العبادةُ ينبني آخرُهَا عَلىَ أوَّلِها فَهِي عَلَى حالين:

أ- أن يدافع الرِّيَاء وَلاَ يسكن إليه، بل يعرض عَنْهُ ويكرهه فإنَّه لا يؤثرُ عَلَيْهِ شَيئًا لقول النَّبِيِّ ص: «إن اللهَ تجَاوَزَ عَن أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ به

أَنفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تتَكلَّمْ»[١].

مثالُ ذَلِك رجلُ قامَ يُصلي ركعتين مخلصًا لله وفي الركعة الثانيةِ أحسَّ بالرِّيَاء فصارَ يدافِعُهُ، فإن ذَلِكَ لا يضرُّه وَلاَ يؤثُر عَلَى صَلاتِه شَيئًا.

ب- أن يطمئنَ إِلَى هَذَا الرِّيَاءِ وَلاَ يدافِعَهُ فحينئذٍ تبطلُ جميعُ العبادةِ لأنَّ آخرَهَا مَبنيٌّ عَلَى أوَّلِها ومرتبطٌ بِهِ، مثالُ ذلكَ: رجلٌ قامَ يُصلي رَكعتين مخلصًا لله وفي الركعةِ الثانيةِ طرأ عَليْهِ الرِّيَاءُ لإحساسِهِ بشخصٍ يَنظر إِلَيْهِ فاطمأنَّ لَذلِكَ ونزعَ إليهُ فتبطُل صلاتُه كلُّهَا[٢] لارتباط بعضِهَا ببعضٍ[٣].

ما يُظَنُّ أنَّهُ رياءٌ وليسَ كذلِكَ:

صورةُ ذَلكَ أن يعملَ العملَ لله خالصًا ثُمَّ ألقى اللهُ له الثناءَ الحسنَ فِي قلوبِ المؤمنينَ بذلِكَ، ففرحَ بفضلِ الله ورحمتِهِ واستبشرَ بِذلكَ، لم يضرُّه، وفي هَذَا المعنى جاء حديثُ أَبِي ذرَّ عن النبي ص: أَنَّهُ سئل عن الرجلِ يعملُ العملَ من الخيرِ يحمده النَّاسُ عَلَيْهِ، فقَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[٤][٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩) ومسلم (٢٩٨٧).

(٢) قَالَ عبد الرحمن حسن آل الشيخ في معرض كلامه عن الرَّيَاءِ الذي يطرأ عَلَى العبادةِ.. وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا؟ وهل يُجازي عَلَى أصل نيته؟ في ذلك خلاف بين العلماء من السَّلف وقد حكاه الإمام أحمد، وابن جرير ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازي بنيته الأولى وَهُوَ مروي عن الحسن وغيره...
فتح المجيد (ص: ٤٠٦).

(٣) القول المفيد عَلى كتاب التوحيد (٢/ ٤٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

(٥) فتح المجيد (٤٠٦).

قال العلماءُ[١]: معناه هَذِهِ البشرى المعجلة لَه بالخيرِ وَهي دليلٌ عَلَى رضا الله تَعَالَى عَنْهُ ومحبتِهِ لَهُ فيحببه إِلَى الخلقِ كَمَا سبقَ الحديثُ[٢]، ثُمَّ يوضع لَهُ القبولُ فِي الأرض، هَذَا كلُّه إذَا حمده النَّاسُ من غير تَعرض منه لحمدِهم وإلا فالتعرُّضُ مذمومٌ.

(١) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٣٩).
(٢) يشير إِلَى حديثِ أبي هريرةَ: أن رسولَ الله ص: قَالَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ..» الحديث رواه مسلم (٢٦٣٧).

الْمَرَضُ الثالثُ: الأنفة من المسكنةِ للهِ

القلبُ الَّذي يَلجأُ إِلَى الخلقِ لقضاءِ حوائِجِهِ وقد يَتذللُ ويتودَّدُ إِلَيْهِم لحصولِ مقصودِهِ ثُمَّ تراه يأنفُ من التذللِ والمسكنةِ لله، هَذَا بلا شكَّ قلبٌ مريضٌ؛ لأنَّ شرطَ صحةِ العبادةِ أن تكونَ قائمةً عَلَى محبةِ الله تَعَالَى والذلَّ لهُ وخوفِه ورجائِه، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَن أنبيائِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٣١]

وقد أجمعَ العقلاءُ فِي كلِّ زمانٍ ومكانٍ أنَّ التوفيقَ ألا يَكلكَ اللهُ إِلَى نفسِك وأن الخذلانَ هو أن يخلي بَينك وبين نفسِكَ فالعبدُ الَّذِي أهملَ الذلَّ والمسكنةَ وإظهارَ الافتقارِ إِلَى الله تَعَالَى ودعاءه بأسمائِه الحسنى وصفاتِه العُلَى قَدْ أغلقَ عَلَى نفسِهِ بابًا من أعظمِ أبوابِ الخيرِ، فالمعونةُ من الملكِ تنزلُ عَلَى العبدِ عَلَى قدرِ ذلِّهِ وانكسارِهِ وتودُّدِهِ ورغبتِهِ ورهبتِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. فَقد تظاهرت الرواياتُ بأنَّ الملائكةَ حضرت يَومَ بدرٍ وقاتَلت وكانَ النصرُ للمؤمنين، ومن أهمِ أسبابِ النصرِ استغاثةُ النَّبِيِّ ربَّهُ(١) ودعاؤُه

(١) قَالَ قتادة: كان يوم بدر أمدهم الله بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف فـذلك قولـه تعـالَى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ

وذلّه لله كَمَا جاءَ فِي الحديثِ الَّذي أخرجه مسلمٌ فِي صحيحِهِ وفيه: أنَّ عمرَ بن الخطابِ قَالَ: لما كَانَ يومُ بدرٍ نظرَ رسولُ الله ﷺ إِلَى المشركينَ وهم ألفُ وأصحابُه ثلاثمائةٌ وتسعةَ عشرَ رجلاً فاستقبلَ النَّبِيُّ ﷺ القبلةَ ثُمَّ مدَّ يديه فجعل يهتفُ بربِّه: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ...»[1].

مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩] ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥] تفسير القرطبي (٤/٢٠٥).

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

الْمَرَضُ الرابعُ
حبُّ التفاخرِ والمباهاةِ بالدُّنْيَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ٨].

قَالَ مجاهدٌ: يَعني يعدُ ما أُعطي وَهُوَ لا يشكرُ اللهَ تَعَالَى ويفخر عَلَى النَّاسِ بِما أعطَاه اللهُ من نعمِهِ وَهُوَ قليلُ الشُّكرِ[١].

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُوهُنَّ: الفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ والطَّعِنُ فِي الأَنسَابِ والاستسقاءُ بالنّجومِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الميتِ»**[٢].

الفخرُ والمباهاةُ بالدُّنْيَا من أمورِ الجاهليةِ المذمومةِ، تجدُ صاحبَ القلبِ المريضِ يبذل الجهدَ ويضيَّعُ الوقتَ وينفقُ المالَ الكثيرَ من أجلِ اقتناءِ السياراتِ الفارهةِ والملابسِ الفاخرةِ والمفروشاتِ الغالية.. إِلَى غيرِ ذَلِكَ من متاع الدُّنْيَا فَيُدخِلُ عَلَى القلبِ العجبَ والكبرَ ويظهرُ عَلَى البدنِ الخيلاءَ وينطقُ اللسانُ بالكلماتِ الدالةِ على الفخرِ ويزدادُ المرَضُ كَلَّما كانت النفسُ تطلبُ الرفعةَ، وإلا فمن النَّاس من يملك هَذِهِ الأشياءَ وَلاَ تؤثرُ فِي قلبِه لأَنَّهُ منشغلٌ بالله فتبقي الدُّنْيَا فِي يده لا تسكن قلبه، وعلامته إذا فقد شيئًا من هَذِهِ الأشياءَ لا يحزن حزنًا يجعله يسخط عَلى أقدارِ الله وَلا يفرحُ فرحًا يجعله يَبغي وَيَطغي ويعصي اللهَ بِما أنعم عَلَيْهِ من نِعَم لأنَّ أَوِلي

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٥٠) ومسلم (٩٣٤).

الأبصار كَمَا قال ابنُ القيّم: لا تغرّهم دُنْيَا لأَنَّهم علموا أنها لعبٌ تلعبُ بها الأبدانُ ولهوٌ تلهوُ بها النفوسُ فتركوها لأهلها(١)، تدبروا قَولَ الله تَعَالَى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ [الحديد: ٢٠] فلو باشرَ قلبُ العبدِ حقيقةَ الدُّنْيَا ومالَهَا ومصيرَها لأبغضتَها نفسُه ولآثَرت عَلَيْهَا الآخرةَ التي هي خير وأبقى.

---

(١) انظر بدائع التفسير (٤/٣٨٨).

الْمَرَضُ الخامسُ: الخيانةُ

قَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

قَالَ ابنُ عباس: الأماناتُ الأعمالُ التِي ائتمنَ اللهُ عليهَا العباد يعني الفرائضَ يقول: لا تنقضُوهَا.

قَالَ الكلبيُّ: أما خيانةُ الله ورسولِه فمعصيتهما، وأما خيانَةُ الأمانةِ: فكلُّ واحدٍ مؤتمنٌ عَلى ما افترضَه اللهُ عَلَيْهِ إن شاءَ خانَها وإن شاء أدَّاهَا لا يُطلْعُ عَلَيْهِ أحدٌ إلاَّ الله تَعَالَى:

وقَولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّها أمانةٌ من غير شبهةٍ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] أي لا يرشد كيد من خانَ أمانَتَه يعني أَنَّهُ يفتضحُ فِي العاقبةِ بحرمانِ الهدايةِ.

وفِي الصحيحين أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**آيَةُ المنافِقِ ثَلاثُ إِذَا حَدَّثَ كذبَ وِإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وِإِذَا اؤتمِنَ خَانَ**»[١].

وَقَالَ ص: «**إِيَّاكُم وَالخِيَانَةَ فَإِنَّهَا بِئْسَت البِطَانَة**»[٢].

والخيانةُ قبيحةٌ فِي كلِّ شيءٍ وبعضُها شرٌّ من بعض وليس من خَانَك فِي فلسٍ كمن خانَك فِي أهلِك ومالِك وارتكب العظائمَ[٣]. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣) ومسلم (٥٩).
(٢) صحيح سنن أبي داود (١٠٤٧) والنسائي (٢٦٣) وابن حبان (٢٤٤٤).
(٣) الكبائر للذهبي (ص: ٢٠٢) وما بعدها باختصار.

وَليس مَن خانَ زوجتَه بالنظرِ إِلَى النساءِ كمن خانَ زوجَتَه بارتكاب الفاحشةِ وليست من خانت زوجَهَا بإفشاء سرَّه أو إدخالِ الرجالِ إِلَى بيتِه وَهُوَ غائب كمن خانت زوجَهَا فِي إخراج بَعضِ الطَّعامِ والشَّرابِ.

وَمِن صورِ الخيانةِ أكلُ أموالِ النَّاس بالباطلِ وإفشاءُ سرَّ الصديق ومنها ضياعُ العباداتِ من صلاةٍ وصومٍ وحجٍ وزكاةٍ وضياعُ الحقوق، كحقَّ الأرحام فيقطعُ رَحِمَهُ أو يعقّ الوالدين فلا يَبرهما ، وقس ما ذكرت عَلَى ما لم أذكر، مع هَذَا القلب لا يتأثر بل تجده محبًّا للخيانةِ ما ذَلِكَ إلا لأنَّهُ مريضٌ.

تنبيه:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم: ١٠].

خيانةُ امرأةِ نوحٍ وامرأة لوطٍ كانتَا فِي الإيمان فلم يوافقها عَلَى الإيمانِ فَأبشع الخيانات الخيانةُ فِي العقيدةِ.

قَالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ:

ليسَ المرادُ بقولِهِ: (فخانتاهما) في فاحشةٍ بل في الدينِ فإنَّ نساءَ الأنبياءَ معصومات عن الوقوعِ فِي الفاحشةِ لحرمةِ الأنبياءِ.

عن ابن عباسٍ فِي هَذِهِ الآيةِ: (فخانتاهما) قَالَ: ما زنتاَ، أما خيانةُ امرأةِ نوحٍ فكانت تخبر أَنَّهُ مجنونٌ، وأما خيانةُ امرأةِ لوطٍ فكانت تدلُ قومَها عَلَى أضيافِهِ.

قالَ عدد من أهل العلمِ: كانت خيانتهما أنهما كانتَا عَلَى عورتيهما، فكانت امرأةُ نوحٍ تطلع عَلَى سرَّ نوحٍ، فإذَا آمنَ مع نوحٍ أحدٌ أخبرت الجبابرةَ من قومِ نوحٍ بِهِ، وأمَّا امرأةُ لوطٍ فكانت إذا أضافَ لوطٌ أحدًا أخبرت به أهلَ المدينةِ ممن يعملُ السوءَ[1].

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٨٢).

الْمرَضُ السادسُ: الحسدُ

تعريفُ الحسدِ:

التحقيقُ أنَّ الحسدَ هُوَ البغضُ والكراهةُ لما يراه من حسنِ حالِ المحسودِ وَهُوَ نوعان:

أحدهُما: كراهيةٌ للنعمةِ عَلَيْهِ مُطلقًا، فهَذَا هو الحسدُ المذمومُ وإذَا أبغض ذَلِك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذَلِكَ مرضًا فِي قلبه ويلتذ بزوالِ النَّعمةِ عَنْهُ وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زَوال الألم الَّذي كَانَ في نفسِهِ.

الثاني: أن يَكره فضلَ ذَلِك الشخصِ عَلَيْهِ فيحبُّ أنْ يكونَ مثله أو أفضلَ منه، فهَذَا حسدٌ وَهُوَ الَّذي سمُّوه الغبطةَ وقد سمَّاه النَّبيُّ ﷺ حسدًا في الحديثِ المتفق عَلَيْهِ من حديثِ ابن مسعود رضي الله عنه أَنَهُ قَالَ: «**لاَ حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»(١) فهَذَا الحسدُ الَّذي نهى عَنْهُ النَّبيُّ ﷺ إلا في موضعين هو الذِي سمَّاه أولئك الغبطةَ وَهُوَ أن يحبَّ مثل حالِ الغير ويَكرَه أن يُفَضَّلَ عَلَيْهِ.

فإنْ قِيلَ: إذًا لمَ سمَّي حسدًا وإنَّمَا أحب أن ينعم الله عَلَيْهِ؟ قيل: مبدأ هَذَا الحب هو نظره إِلَى إنعامه عَلَى الغير وكراهته أن يتفضل عَلَيْهِ ولولا وجود ذَلِك الغير لم يحب ذلك، فلما كَانَ مبدأ ذَلِكَ كراهته أن يتفضل عَلَيْه الغير كَانَ حسدًا... أما من أحب أن ينعمَ الله عَلَيْهِ مع عدم التفاته إِلَى

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣) ومسلم (٨١٦).

أحوال النَّاس، فهَذَا ليس عِنْدَهُ من الحسد شيء، ولهَذَا يبتلى غالبُ النَّاسِ بهَذَا القسمِ الثاني وقد تسمى المنافسة: فيتنافس الاثنان في الأمرِ المحبوبِ المطلوبِ كلاهما يطلبُ أن يأخذَه وذَلِكَ لكراهية أحدهما أن يتفضلَ عَلَيْه الآخرُ كَمَا يكره المستبقان كلّ منهما أن يسبقَه الآخرُ والتنافسُ ليس مذمومًا مُطلقًا بل هو محمودٌ فِي الخيرِ قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦].

والحسدُ فِي الأصل إِنَّمَا يقع لما يحصلُ للغير من السؤددِ والرياسةِ، وإلا فالعاملُ لا يحسد في العادة ولو كانَ تنعمه بالأكلِ والشربِ والنكاح أكثر من غيره، بخلافِ هذين النوعين فإنَّهما يحسدان كثيرًا، ولهَذَا يوجدُ بَيْنَ أهلِ العلمِ الذين لهم أتباعٌ من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذَلِكَ وكذلِكَ فيمن له أتباعٌ بسببِ إنفاقِ مالِهِ.

هَذَا عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه نافسَ أبَا بكرٍ رضي الله عنه في الإنفاقِ كَمَا ثبت فِي الحديثِ الصحيح عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قَال: أمرَنَا رسُولُ الله ﷺ أن تتصدقَ فوافق ذلِكَ مالاً عندي فقلت: اليومُ أسبقُ أبَا بكرٍ إن سبقته يَومًا، فجئت بنصفَ مَالي فقَالَ رَسُولُ الله ص: «مَا أَبْقيتَ لأهَلِكَ» قلت مثله قَالَ وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عِنْدَهُ فقَال له رسولُ الله ص: «ما أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟» قال أبقيت لهم الله ورسوله، قلتُ: لا أسابقك إِلىَ شيء أبدًا»[1].

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة لكن حال الصديق

(١) صحيح سنن أبي داود (١٦٧٨) وصحيح الترمذي (٣٦٩٥).

رضي الله عنه أفضل منه وَهُوَ خال من المنافسة مطلقًا لا ينظر إِلَى حال غيره.

وكذَلِك موسى عَلَيْهِ الصلاةُ والسلامُ فِي حديثِ المعراج حصل له منافسةٌ وغبطةٌ للنَّبيِّ ﷺ حَتَّى بكى لما تجاوزه النَّبيّ ﷺ فقيلَ له: «ما يُبكيكَ؟» فقال: «لأَنَّ غُلامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّة مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي»(١) أخرجاه فِي الصحيحين انتهى كلام شيخِ الإسلام(٢).

أضرارُ الحسدِ عَلَى الحاسدِ فِي الآخرة(٣):

١- الحاسدُ معترضٌ عَلَى أقدارَ اللهِ:

إذا علم الحاسدُ أنَّهُ بحسده لأخيه المسلم إِنَّمَا يعترض عَلَى أقدار الله ويكره حكم الله وينازع ربه فِي قسمته الَّتِي قسمها لعباده، فهو سُبْحَانَهُ الَّذِي جعل هَذَا غنيًا وجعل هَذَا ذكيًا وجعل هَذَا عالمًا وأعطى هَذَا المال ورزق هَذَا العيال. وكتب القبول لذاك فهو سُبْحَانَهُ الَّذِي قدر المقادير وخلق كل شيء يقدر كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] وكما قَالَ نبيه ص: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ ألفَ سَنَةٍ**»(٤) وَقَالَ ﷺ: «**كُلُّ شَيءٍ بِقدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ**(٥)»(٦) ومن هَذَا قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للمشركين الذين قالوا:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) ومسلم (١٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/١١١-١٠/١١٨) باختصار.

(٣) انظر التسهيل لتأويل التنزيل تفسير جزء عم (٢/٧٤٦) لشيخنا- حفظه الله- باختصار.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٥) معنى الكيس: هو النشاط والحدق بالأمور وَهُوَ ضد العجز.

(٦) أخرجه مسلم: (٦٥٥).

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: ٣٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٥٤].

٢- الحاسدُ مَتَشبَّه بالمشركينَ:

وَإِذَا علمَ الحاسدُ أَنَّهُ مُتَشَبَّه بِالمشركينَ وَبالمُنَافِقِينَ فِي تَمنْيِهم الشَّرَّ لِلمسلمينَ وَزوالَ النِّعَمِ عنهم كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] ولو علمُ المسلمُ أَنَّه منهي عن التَّشَبُّه بالمشركينَ فِي معتقداتِهم وسميتِهم ودينِهم لَتَركَ حسدَ إِخوَانِهِ المؤمنينَ مَنْعًا لنفسِه من أن يتورطَ مَع من تَشبَّه بِهِم في أُخراه حُيْثُ سوء المصير.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]اهـ.

٣- الحاسدُ جنديٌّ مِن جندِ إبليسَ:

وإذَا علمَ الحاسدُ أَنَّهُ بحسدِه للمؤمنينَ يكونُ جنديًّا من جندِ إبليسِ يسخرُهُ إبليسُ لإمضاءِ ما يريدُ في عبادِ الله الصالحينَ لا نكَفَّ عَن حسدِهِ، فَمَنْ ذَا الذي يريدُ أنَ يكونَ جنديًّا لإبليسَ اللعين وعدوًّا للهِ ربَّ العالمينَ معترضًا عَلَىَ قدرِه وشرعِه مسخطًا لهُ مُرضيًا لأوليائه الشياطين؟!!

٤- الحاسدُ مفارقٌ للمؤمنينَ:

لو علمَ الحاسدُ أَنَّهُ بحسدِه للمؤمنينَ يفارقُهم فِي حُبِّهِم الخيرَ بعضَهم لبعضٍ كَمَا قالَ تعَالَى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩] وَأَنَّهُ بِمفارقتهم فِي الدُّنْيَا يُوشكُ أن يُفَارِقَهُم فِي الآخرةِ ، فَمَنْ أحَبَّ قَومًا حُشِرَ مَعَهُم لَو عَلِم ذَلِك لا نَزجَرَ عَنْ حَسَدِه.

٥- الحاسدُ معذبٌ فِي الآخرةِ:

إذا علمَ الحاسدُ ما سيحلُّ بِهِ من عذابِ الله سُبْحَانَه في الآخرة ومن عقابٍ عظيمٍ من جزاءِ ما تقدَّمَ لا نزجرَ ولا نكفَّ عن حسدِه للناسِ واستغفرَ ربَّهُ كل ما اقترَفَهُ عَلَى نفسِه وجرَّهُ عَلَى المسلمينَ.

٦- حسناتُ الحاسدِ تَذهَبُ للمحسودِ:

أيها الحاسدُ إنَّ المحسودَ يَنتَفِعُ بحسدِكَ لَهُ فِي الآخرةِ فهو مظلومٌ، مِنْكَ فيأخذُ من ديوانِ حسناتِكَ ويضم إلى ديوانِ حسناته ويطرحُ من ديوان سيئاتِه ويحط عَلَى ديوان سيئاتك، وَلاَ سيما إذا أخرجت الحسدَ إلى القولِ والفعلِ بالغيبةِ والقدح فيه وهتك سترِه فَهِي هَدايا تهدي إليه وأنت لا تشعرُ والموفقُ من وفَّقَهُ اللهُ.

الأضرار عَلى الحاسدِ فِي الدُّنْيَا:

فمنها كَمَا لخصه أهل العلم:

١- الحاسدُ دائمًا فِي الهمِّ والحَزَنِ:

إن الحاسدَ بسببِ الحسدِ لا يزالُ فِي الهمِّ والحَزَنِ والنَّكَدِ والكمدِ، والنَّاسُ ينعمُ اللهُ عليهم بَأنواعٍ من النِّعمِ دَائمًا فلا يزالُ الحاسدُ يُعذبُ بكل نعمةٍ يراهَا عَلى النَّاسِ.

٢- الحاسدُ قد يتمنَّى لنفسِهِ البلاءَ:

ثم إنَّ الحاسدَ- وَهُوَ لا يَدْري- قَد يتمنَّى لنفسِهِ البلاءَ بحسدِه للنَّاسِ فقد تكونُ النعمةُ الَّتِي يعيشَ النَّاسُ فِي كنفِهَا ابتلاءً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهم، وقد عافَاهُ اللهُ من ذَلِكَ الابتلاءِ فيتمنَّاهُ لنفسِهِ(١) وأيضًا إذا رُزِقَ هُو هَذِهِ النِّعَمَ وزفت إليه وجوه الإحسانِ لم ينفَكّ عَن حاسدٍ يحسدُهُ، فلو أذهبَ اللهُ النعمةَ عَنك لحسدِهِ لكَ فقد زالت عَنكَ نِعمٌ في الدَّيْنِ وَالدُّنْيَا.

---

(١) كمن يحسد الناسَ عَلَى الـمال مثلا فيتمنى أن يرزق مالاً فإذا أعطاه الله من فضله بغى وطغى وفسد فِي الأرض وأنفقه فِي الحرام فكان هذَا الـمال نقمة عَلَيْهِ نعمة عَلَى غيره، فهو تمنى النقمة والابتلاء وَهُوَ لا يشعر- أو كالذي يحسد أهل العلم ويتمنى ما عندهم فإذا رزقه الله العلم قد يفسد قلبه ويمرض بالرِّيَاء والعجب والكبر وحب الجاه والرياسة وصرف وجه الناس إليه إِلَى غير ذلك من الآفات الَّتِي تهلك صاحبها وقد تدخله النار إن لم يتب.

هَل يَحْسِدُ المؤمنُ؟

نَعم: قد يحسدُ المؤمنُ أخَاه، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ نَبيُّ الله الكريم يعقوبُ لولدِه يوسفَ عَليهما السَّلامُ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] وَقَالَ إخوةُ يوسفَ: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝﴾ [يوسف: ٨-٩].

وَحديثُ عامرِ بن ربيعةَ وكيفَ اتَّجه بعينِه إِلَى سهلِ بن حنيف رضي الله عنه الحديث فِي مسند أحمدَ وغيرِه وفيه: «أن سهلَ بن حنيفٍ قَالَ: رأَى عامرَ بن ربيعةَ سهلَ بن حنيفٍ يغتسلُ فقال: ما رأيتُ كاليومِ وَلاَ جلده مخبأة فلُبط سَهل فأتى رسُولَ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله هَل لكَ فِي سهلِ بن حنيفٍ والله ما يرفع رأسَهُ فَقَالَ: «**هل تَتَّهِمُونَ لَهُ أَحَدًا؟**» قالوا: نَتَّهِمُ عَامرَ بن ربيعةَ قَال: فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَامرًا فَتغَيَّظَ عَليه وَقَالَ: «**علامَ يَقْتِلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ أَلا بَرَّكْتَ**[١]**؟ اغْتَسِلْ لَهُ**» فَغسلَ عامرٌ وجهَهُ ويدَيْه ومرفقَيْهِ وركبَتَيْهِ وأطرافَ رجليْهِ وداخلةَ إزارِهِ فِي قدحٍ ثُمَّ صبَّ عَلَيْه فراحَ سهلٌ مع النَّاسِ ليسَ به بأسٌ»[٢].

وأخرَجَه البُخَاريُّ ومسلمٌ من حديثِ أم سلمةَ رضي اللهُ عَنَها أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لجارية فثي بيتِ أم سلمةَ زوجِ النبيَّ ﷺ رأى بوجهها

---

(١) وفي رواية «إذا رأى أحدُكم من أخيه ما يعجبه فليدع لَه بالبركة».

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٨٥) وابن ماجه (٥٠٦) ومالك في الموطأ (٢/٦١٧) وابن حبان (١١٠٠).

سفعة[١] فقَالَ: «بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لَهَا»[٢].

وَفي الصحيحين من حديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عَنْهَا قَالت كَانَ رسولُ الله ﷺ يأمرني أنْ أَسترقِيَ مِن العَيْنِ[٣].

مَا الفرقُ بَيْنَ العينِ والحسد؟

اعلم أنَّ كُلَّ عائنٍ حاسدٌ، وليسَ كلُّ حاسدٍ عائنًا، فالحسدُ أشملُ من العين.

قالَ ابنُ القيمِ رحمَه اللهُ[٤]:

والعائنُ والحاسدُ يشتركان فِي شيءٍ ويفترقانِ فِي شيءٍ:

فيشتركان فِي أنَّ كلَّ واحدٍ مِنهما تتكيفُ نفسُهُ وتتوجَّهُ نَحو مَن يريدُ أذَاه.

فالعائنُ: تَتكَيفُ نفسُهُ عند مقابلةِ المعين ومعاينتِه.

والحاسدُ: يحصلُ لهُ ذَلِكَ عند غيبةِ المحسود وحضوره أيضًا.

ويفترقان فِي أنَّ العائنَ قد يصيبُ من لا يحسدُهُ من جَمادٍ أو حيوانٍ أو زرع أو مالٍ وَإنْ كَانَ لا يكادُ ينفَكّ من حسدِ صاحبِه، وربّما أصابت عينُه نفسَهُ فإنَّ رؤيَتَهُ للشيء رؤيةَ تعجبِ وتحديقِ مع تكيفِ نفسِه بتلكَ الكيفية تؤثر في المعين.

---

(١) السفعة: التغير والسواد، أو لون تخالف لون الوجه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٩) ومسلم (٢١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/١٩٩) ومسلم (٤/١٧٤).

(٤) بدائع التفسير (٥/٤١٦) وما بعدها باختصار.

(قلتُ- ابن القيم) النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد فيؤثرُ نظرُهُ فيه كَمَا تُؤَثر نفسُهُ بالحسد ويَقوى بتأثير النفسِ عند المقابلةِ فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلاَ اجتمعت الهمة عَلَيْهِ وتوجهت النفس بكليتها إليه فيتأثر بنظره حَتَّى إن من النَّاس من يسقط ومنهم من يُحَمُّ ومنهم من يحمل إِلَى بيته، وقد شاهد النَّاس من ذلكَ كثيرًا.

وقد يكون سببهُ الإعجاب وَهُوَ الَّذي يسمونَه بإصابةِ العينِ وَهُوَ أن الناظرَ يرى الشيءَ رؤيةَ إعجابٍ أو استعظام فتتكيفُ روحهُ بكيفية خاصة تؤثر في المعين، قَالَ رَسُولُ الله ص: «الْعَيْنُ حَقٌّ»(١).

والمقصودُ: أنَّ العائنَ حاسدٌ خاصٌ وَهُوَ أضرُّ من الحاسدِ ولهَذَا - والله أعلم- إنَّمَا جاء في السورة ذكر الحاسدِ دون العائن لأنَهُ أعمُّ فكلُّ عائنٍ حاسدٌ ولا بدَّ وليسَ كلُّ حاسدٍ عائنًا، إذا استعاذ من شرَّ الحاسدِ دخلَ فيه العائن، وهَذَا شمولُ القُرْآن وإعجازُه وبلاغتُه.

كيف يندفعُ شرُّ الحاسد عن المحسود؟

لا بدَّ من الأخذِ بالأسبابِ لدفع الحسدِ لأنَّ تركَ الأسباب بالكلية طعنٌ في الشريعةِ والاعتمادِ عَلَى الأسبابِ شركٌ كَمَا قرر هَذا المعنى علماءُ أهل السنَّةِ ومنهم شيخُ الإسلام شرطَ أنْ تكونَ هَذِهِ الأسبابُ منضبطة بالضوابطِ الشَّرْعيَّة، فلا يجوزُ أن يطلبَ أحدُ من عرافٍ أو دجالٍ علاجًا للحسدِ أو دفع الحسد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيءٍ لَمْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧).

تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[١] وَفي رِوايةٍ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ ص»[٢].

ولا يجوز تَعليقُ التمائمَ [٣] والعلائقُ اعتقادًا من صاحبِهَا أنها تدفع عَنْهُ شرَّ عَينِ الحاسدِ، وبعضُ النساءِ يتخذنَ قلادةً تعلقُ بها خرزةً زرقاءَ اللونِ، اعتقادًا منها أن الحاسد يتجه بنظره إِلَى القلادةِ فيندفعُ عنها شرُّ الحسدِ.

وهَذَا كلُّه من الشَّرْكِ قَالَ رَسُولُ الله ص: «التَّمَائمُ وَالتَّوَلَةَ[٤] شِرْكٌ»[٥].

قَالَ العلامةُ ابنُ القيمِ[٦]:

ويندفعُ شرُّ الحاسدِ عن المحسودِ بعشرةِ أسبابٍ:

أحدها: التعوذُ بالله من شرَّه:

والتحصنُ بِهِ واللجوء إليهِ وَهُو المقصودُ بهذِه السورة: «الفلق» والله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٩٠٤) والدارمي (١/٢٥٩) وابن ماجه (٦٣٩) وصححه الألباني في الإرواء (٧/٦٨).

(٣) التمائمُ: جمع تميمة وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين- فتح المجيد (١٣٣).

(٤) التّولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إِلَى زوجته- المصدر السابق.

(٥) رواه أحمد في المسند (١/٣٨١) وأبو داود (٣٨٨٣) والبيهقي (١/٣٥٠) وأبو يعَلي (٥٢٠٨) والبغوي (٣٢٤٠) – نقل التخريج من فتح المجيد ص (١٣١) أشرف على تحقيقه شيخنا- حفظه الله-.

(٦) بدائع التفسير (٥/٤٢٥) وما بعدها باختصار.

تَعَالى سميعٌ الاستعاذَتِه عليمٌ بما يستعيذ مِنه، والسمعُ هُنا المرادُ به: سمعُ الإجابةِ لا السمعُ العامُ، فهو مثل قولِهِ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» وقولِ الخليل ص: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

السببُ الثاني: تَقوى الله:

وحفظُه عند أمرِه ونهيه، فمن اتَّقى اللهَ تولى اللهُ حفظَه ولم يكله إِلَى غيرِه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لعبد الله بن عباس: «احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ الله تَجِدْهُ تُجاهكَ»[١] فمن حفظَ اللهَ حفظه اللهُ، ووجده أمامَه أينما توجه ومن كَانَ اللهُ حافظَه وأمامَه فممن يخافُ؟ ومن يحذرُ؟

السببُ الثالثُ: الصبرُ عَلَى عدوِهِ:

وألاَّ يقاتله وَلاَ يشكوه وَلاَ يحدث نفسَه بِأذاه أصلاً فما نُصرَ عَلَى حاسدِه وعدوه بمثلِ الصبر عَلَيْهِ والتوكل عَلَى الله وَلا يستطل تأخيرَه وبغيه فإنه كلما بُغى عَلَيْهِ كَانَ بغيُه جندًا وقوةً للمبغي عَلَيْهِ المحسود يقاتل به الباغي نفسَه وَهُوَ لا يشعر فبغيه سِهامٌ يرميها من نفسِه إِلَى نفسه ولو رأى المبغِي عَلَيْه ذَلِكَ لسرَّه بغيُه عَلَيْهِ ولكن لضعفِ بصيرتِه لا يَرى إلاّ صورة البغي دون آخرِه وماله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] فإذا كَانَ اللهُ قد ضَمِنَ له النصرَ مع أَنَّهُ قد استوفى حقَّه أولاً فكيف بمن لم يستوفِ شيئًا من حقِّهِ بل بغي عَلَيْهِ وَهُوَ صابرٌ وما من

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٥١٦) وغيره.

الذُّنُوب ذنبٌ أسرعُ عقوبةً من البغي وقطيعةُ الرحمِ.

السببُ الرابعُ: التوكلُ عَلَى اللهِ:

فمن توكَّلَ عَلَى الله فهو حسبُهُ والتوكلُ من أَقَوى الأسبابِ الَّتِي يدفعُ بها العبدُ مَا لا يطيقُ من أذَى الخلقِ وظلمِهم وعدوَانِهم... قَالَ بعضُ السَّلف: جعلَ اللهُ لكلِ عملٍ جزاءً من جنسِهِ وجعلَ جزاءَ التوكّلِ عَلَيْهِ نفسَ كفايتِه لعبدِه فَقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وَلَم يقل: نُؤْتِه كَذا وَكَذا مِن الأَجْرِ كَمَا قَالَ فِي الأعمالِ بل جَعَلَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ كَافِي عَبْدَه المتوكلَ عَلَيْهِ وَحَسبه وَواقِيه، فَلو تَوَكَّلَ العبدُ عَلَى الله حَقَّ تَوكُّلِه وَكَادَتْهُ السَّمواتُ والأَرضُ وَمَن فِيهنَّ لجَعَلَ لَهُ ربُّهُ مخرجًا من ذَلِكَ وَكَفَاهُ ونصرَهُ.

السببُ الخامسُ: فراغ القلبِ من الاشتغالِ بِه:

فراغُ القلبِ من الاشتغالِ بِهِ والفكرِ فِيهِ، وأن يقصدَ أن يَمحُوهُ مِن بَالِهِ كُلَّمَا خطر له، فلا يلتفتُ إليهِ وَلاَ يَخافُهُ وَلاَ يملأُ قلبَه بالفكرِ فيه.

وهَذَا من أنفع الأدويةِ وأقوى الأسبابِ المعينةِ عَلَى اندفاعِ شرَّه فإنَّ هَذَا بمنزلةِ مَن يطلبُه عَدوه ليمسكَهُ ويؤذِيهِ فَإذَا لم يتعرض لَه وَلاَ تماسَكَ هو وإيَّاهُ، بل انعزلَ عَنْهُ لم يقدر عَلَيْهِ فإذَا تماسكَا وتعلقَ كُل مِنهما بصاحِبِهِ حصلَ الشَّرُّ وهكذا الأرواح سواء، فإذا علقَ روحَه وشبثَهَا به وروحُ الحاسدِ الباغي متعلقةٌ به يقظةً ومنامًا لا يفتر عَنه فإذا تعلقَت كُلُّ روحٍ منهما بالأخرَى عُدِمَ القرارُ ودامَ الشَّرُّ حَتَّى يهلك أحدهما...

فإذَا خَطرَ ببَالِه بادرَ إِلَى محو ذَلِكَ الخاطرِ والاشتغالُ بما هو أنفعُ له

وأَولى بِه بَقي الحاسدُ الباغي يأكل بعضُه بعضًا، فإنَّ الحسد كالنَّارِ فَإِذَا لَمْ تجد ما تَاكلُه أَكَلَ بعضُهَا بَعَضًا.

وهَذَا بابٌ عظيمُ النفعِ لا يلقَاه إلا أصحابُ النُّفوسِ الشَّريفة والهممِ العليةِ وبين الكيسِ الفطنِ وبينه حَتَّى يذوقَ حلاوته وطيبه ونعيمَه كأنَّه يَرى مِن أعظمِ عذابِ القلبِ والروحِ اشتغالُه بعدوِّهِ وتعلقُ روحِه بِه وَلاَ يرى شَيئًا آلَمَا لروحِهِ من ذَلِك وَلا يصدقُ بهَذَا إلا النُّفوسُ المطمئنةُ الوادعةُ اللينةُ الَّتي رَضِيَت بوكالةِ الله لهَا وعلمَت أنَّ نَصرَه لها خيرٌ من انتصارِهَا لنفسِهَا فوثقت بالله وسكنت إليهِ واطمأنت به.

السببُ السادسُ: هو الإقبالُ عَلَى اللهِ والإخلاصُ له:

وجعل محبَّته ورضَاه والإنابَة إليه فِي محلِ خواطرِ نفسِه وأمانيهَا، تدبُّ فيها دبيبَ تلكَ الخواطرِ شَيئًا فَشَيئًا حَتَّى يقهرَهَا ويغمرَهَا ويذهبَهَا بالكلية، فتبقى خواطرُه وهواجسُه وأمانيهُ كُلُّهَا فِي محابِ الرَّبِّ والتقربِ إليه وَتَملقِه وَتَرَضَّيه.. فإذا صار كذَلِكَ فكيفَ يرضَي لنفسَه أن يجعلَ بيتَ أفكارِه وقلبِه معمورًا بالفكرِ فِي حاسدِه والباغِي عَلَيْهِ والطريقَ إِلَى الانتقامِ منه والتدبير عليه؟ هَذَا ما لا يتسعُ لهُ إلا قلبٌ خَربٌ لم تسكن فيه محبةُ الله وإجلالِهِ وطلب مرضاَتِه.

قَالَ تَعَالَى حكايةً عن عدوِّه إبليسَ: أنَّه قَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] فقالَ تَعَالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، فقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا

سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النمل: ٩٩، ١٠٠].

وَقَالَ فِي حقِّ الصديقِ يوسفَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

السببُ السابعُ: تجريدُ التوبةِ إِلَى اللهِ من الذُّنُوبِ:

الَّتي سَلَّطَت عَلَيْهِ أعداءه، فإنَّ اللهَ تَعَالَى يَقولُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وَقَالَ لخير الخلقِ وهُم أصحابُ نبيِّهِ دونَه ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فَما سُلِّطَ عَلَى العبدِ من يُؤذيهِ إلاَّ بِذنبٍ يعلمُهُ أو لا يعلمهُ، وما لا يعلمه العبدُ من ذنوبِه أضعافُ ما يعلمُهُ مِنْهَا، وما يَنْسَاهُ مما عَمِلَهُ أَضعافُ ما يَذكُره..

وسنذكُر إن شاءَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ ليسَ فِي الوجودِ شرٌّ إلا الذُّنُوبُ وموجباتُها، فإذَا عُوفِي العبدُ من الذُّنُوب عُوفي من موجباتِها، فليس للعبد - إذَا بُغي عَلَيْهِ وأُوذِي وتَسلطَ عَلَيْهِ خصومُه- شيءٌ أنفعَ لهُ من التوبةِ النصوحِ.

وعلامةُ سعادتِهِ: أن يعكسَ فكرَه ونظرَه عَلَى نفسِه وذنوبِه وعيوبِه فيشتغلُ بها وبإصلاحِها وبالتوبةِ منها... واللهُ يتولَّى نصرتَه وحفظَه والدفعَ عَنْهُ ولا بدَّ فما أسعَدَهُ من عبدٍ.

السببُ الثامنُ: الصدقةُ والإحسانُ ما أمكنه:

فإنَّ لذَلَك تأثيرًا عجيبًا فِي دفعِ البلاءِ ودفع العين وشرَّ الحاسدِ ولو لم يكن فِي هَذَا إلا بتجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما تكاد العيد والحسد والأذى يتسلط عَلَى محسن متصدق وإن أصابه شيء من ذَلِك كَانَ معاملاً فيه باللطفِ والمعونةِ والتأييدِ وكانت له فيه العاقبةُ الحميدةُ.

وبالجملةِ: فالشكرُ حارسُ النعمةِ من كلَّ ما يكونُ سببًا لزوالها... فالمحسنُ المتصدق يستخدمُ جُندًا وعسكرًا يقاتلون عَنْهُ وَهُوَ نائمٌ عَلَى فراشِه فمن لم يكن له جندٌ وَلاَ عسكرٌ وله عدوٌ فإنه يوشك أن يظفرَ به عدوّه وإن تأخرت مدة الظفرِ واللهُ المستعانُ.

السببُ التاسعُ: وَهُوَ من أصعبِ الأسبابِ عَلَى النفسِ:

وأشقها عليها وَلاَ يوفقُ له إلا من عظمِ حظَّه من الله وَهُوَ إطفاءُ نارِ الحاسدِ والباغِي والمؤذي بالإحسانِ إليه، فكلما ازدادَ أذى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحةً وعَلَيْهِ شفقةً.

فاسمع الآن قولَه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

وقَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص: ٥٤].

وتأمل حالَ النَّبيَّ ﷺ: «أنه ضربه قومُه حَتَّى أدموه، فجعلَ يسلت

الدمَّ عَنْهُ ويقولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**»[١] كيف جمع فِي هَذِهِ الكلمات أربعَ مقامات من الإحسانِ قابل بها إساءتهم العظيمةِ إليه؟

أحدها: عفوُه عنهم والثاني استغفارُه لهم والثالث: اعتذارُه عنهم بأنهم لا يعلمون والرابع: استعطافُه لهم بإضافتهم إليه، فقالَ: «اغْفِرِ لِقَوْمِي».

واسمع الآن ما الَّذِي يسهلُ هَذَا عَلَى النفسِ وطيبه إليها وينعمها به.

اعلم أنَّ لك ذنوبًا بينَك وبين الله تخافُ عواقبَهَا وترجُوه أن يعفوَ عنها ويغفرَها لك ويهبَها لك ومع هَذَا لاَ يقتصرُ عَلَىَ مجردِ العفو والمسامحةِ حَتَّى ينعم عليك ويكرمك ويجلبُ عليك من المنافعِ والإحسانِ فوقَ ما تؤمله فإذا كنت ترجو هَذا من ربك وتحب أن يقَابلَ به إساءتَك فما أولاَك وأجدرَك أن تعاملَ به خلقه وتقابل به إساءتهم، ليعاملك اللهُ تلك المعاملةِ فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل.

السببُ العاشرُ: وَهُوَ الجامعُ لِذلكَ كله وعَلَيْه مدارُ هَذِهِ الأسبابِ، وَهُوَ تجريدُ التوحيدِ:

والترحلُ بالفكرِ في الأسبابِ إِلَى المسببِ العزيز الحكيم، والعلمُ بأن هَذِهِ الآلات بمنزلةِ حركات الرياحِ وهي بيدِّ محركِهَا وفاطِرهَا، وبارئها وَلاَ تضرُّ وَلا تنفعُ إلا بإذنِه- قَالَ تعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال ﷺ: لعبد الله بن عباس: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ**

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٢٩٤) ومسلم (٤١٤).

يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بشَيءٍ قَدْ كَتَبهُ الله لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»[١].

فإذا جردَا العبدُ التوحيدُ فقد خرجَ من قلبِه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عَلَيْهِ من أن يخافَه مع الله، بل يفردُ اللهَ بالمخافةِ وقد أمنه منه وخرج من قلبِه اهتمامه به واشتغالِه به وفكرِه فيه وتجردٍ لله محبةً وخشيةً وإنابةً وتوكلاً واشتغالًا به عن غيره فيرى أن إعمالَه فكرِه فِي أمرِ عدوَّه وخوفِه منه واشتغالِه به من نقص توحيده، وإلا فلو جردَ توحيدَه لكان له فيه شغل شاغل والله يتولى حفظَه والدفعَ عنه، وبحسب إيمانِه يكون دفاع الله عنه.

فائدةٌ:

حَتَّى لا يأخذَ المحسودَ حسناتَك يومَ القيامةِ حَتَّى لا يبغضك الله ويبغضك النَّاس عليك بجهاد النفسِ عَلَى تركِ الحسدِ، وأولُ الطريقِ هو أن تقولَ من قلبك حين يعجبُك شيءٌ سواء كَانَ ماديًّا كالأموالِ والسياراتِ والبيوت وغيرِها أو شيئًا معنويًا كالإعجابِ بما عند الشخص من علم أو حضورٍ أو قبولٍ أو أيّ شيءً تقول دفعًا للحسدِ الدعاءَ الَّذي علَّمه النبيُّ ﷺ لأمَّتِهِ فِي مثل هذِهِ المواقف: «اللهمَ بَارِك» لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ للرجل الذي اتّجه بعينه إلى سهل «عَلامَ يَقْتِلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ أَلا بَرَّكْتَ»[٢] والموفقُ من وفَّقَه الله تَعَالَى.

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٥٥٦).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

الْمَرَضُ السابعُ: سوءُ الظنّ

سوءُ الظنَّ مدخلُ من مداخلِ الشَّيْطَانِ ليفسدَ قلبَ العبدِ ويمرضه بظنِّه الشرّ بالمسلمين، فقد نهى اللهُ تَعَالَى ونهى رسولُه عن سوءِ الظنَّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [الحجرات: ١٢].

قالَ القرطبيُّ[١]:

ثبتَ فِي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحدِيثِ وَلا تَحَسَّسُوا [٢] وَلاَ تَجَسَّسُوا [٣] وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَدَابَروا وَلا تَباغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخوانًا**»[٤].

قَالَ علماؤُنَا: فالظنُّ هنا فِي الآية هو التهمة ومحل التحذير والنهي إِنَّمَا هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو يشرب الخمر مثلاً ولم يظهر علة ما يقتضي ذلك، ودليلُ كونِ الظنَّ هنا بمعنى التهمةِ قوله تَعَالَى ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ وذَلِكَ أَنَّهُ قد يقع له خاطرُ التهمةِ ابتداءً ويريد أن يتجسسَ خبرَ ذَلِك ويبحثُ عَنْهُ ويتبصرُ ويستمعُ لتحقيقِ ما وقعَ له من تلك التهمةِ فنهى النَّبِيُّ ﷺ عن ذلكَ وإن شئت قلت: والَّذِي يميزُّ الظنونَ الَّتِي يجبُ

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/٣١٥) وما بعدها باختصار.

(٢) التحسن: الاستماع إِلَى حديث القوم وهم له كارهون- تفسير ابن كثير (٤/٢٦٧).

(٣) التجسس: البحث عن الشيء- المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٦٤) ومسلم (٢٥٦٣) واللفظ للبخاري.

اجتنابُها عما سواهَا، أن كلَّ ما لم تعرف له أمارةٌ صحيحةٌ وسببٌ ظاهرٌ كانَ حرامًا واجبَ الاجتنابِ وذَلِكَ إذا كَان المظنون به ممن شوهدَ منه السترُ والصلاحُ وأونست منه الأمانةُ فِي الظاهرِ فظنُّ الفسادِ بِه والخيانةِ محرمٌ بخلاف من اشتهره النَّاسُ بتعاطِي الريبِ والمجاهرة بالخبائث اهـ.

قالَ أحدُ العلماءِ: والظنُّ خواطرُ تقعُ في القلبِ ربما لا يستطيعُ الإنسانُ دفعَها فيجبُ عَلَيْهِ أن يضعفَها بظنَّ الخيرِ فإن لم يستطع فعَليْه أن يتذكَر عيوبَه وخفايا ذنوبِه لينشغلَ بها عن عيوبِ النَّاس فإن لم يستطع أن يدفعَ الظنَّ السيءَ بِذَلِك فعَلَيْهِ ألا يتكلمَ به أو يبحثَ عن تحقيقه وبهَذا يسلم من الإثم لأنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ اللهَ تجاوَزَ لأمَّتي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٢٥٢٨) ومسلم (١٢٧).

الْمَرَضُ الثامنُ: احتقارُ المسلمين

احتقارُ المسلم لأخيه المسلمِ من أعظم الذُّنُوبِ وقد نَهى اللهُ تَعَالَى عن السُّخرِيَة الَّتي هي احتقارُ المسلمين والاستهزاءُ بهم.

قَالَ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: ١١].

قال العلامةُ القاسمي[١]:

قالَ أبو السعود: فإنَّ مناطَ الخيريةِ في الفريقين ليسَ ما يظهرُ النَّاسُ من الصورِ والأشكالِ وَلاَ الأوضاع والأطوار الَّتي يدورُ عليها أمرُ السُّخْرِيَة غالبًا بل إنَّمَا الأمورُ الكامنة في القلوبِ فلا يجترئ أحدٌ عَلَى احتقارِ أحدٍ فلعله أجمعَ منه لما نيطَ له من الخيريةِ عند الله تَعَالَى فيظلم نفسَه بتحقيرِ مَن وقَّرَه الله تَعَالَى والاستهانة بمن عظَّمَه اللهُ تَعَالَى، ومِن أهلِ التأويلِ من خصَّ السُّخرِيَة بما يقعَ من الغني للفقير، وآخرون بما يعثرُ من أحدٍ عَلَى زلةٍ أو هفوةٍ فيسخرُ به من أجلِها.

قَالَ الطبريُّ[٢]:

والصوابُ أن يُقالَ إنَّ اللهَ عمَّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخرَ بعضُهم من بعضٍ جميع معاني السُّخْرِيَةِ فلا يحلُّ لمؤمنٍ أن يسخرَ من مؤمنٍ لا لنقرةٍ وَلاَ لذنبٍ ركبه وَلاَ لغير ذَلِك اهـ.

---

(١) محاسن التأويل (٦/٣٠١).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٣/١٦٩).

وَقَالَ رَسُولُ الله: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا- وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْب امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ...» (١).

كما أَنَّهُ لا يجوزُ تحقيرُ المسلم لابتلاءٍ أصابَه في بدنِه أو لنقص عِندَهُ في أمرٍ من أمورِ الدُّنْيَا، كذَلِكَ لا يجوزُ تحقيرُ المسلم لتفريطِه فِي أمرٍ من أمور الدين فلا يعلمُ أحدٌ قدرَه عند الله وَلا يعلم أحد هل تقبل الله عمله أم لا؟ وقد تقدم في باب الرِّيَاءِ أنَّ أولَ مَن يُسعر به النارُ عالمٌ فلا يغترَّ أحد بطاعتِه فيحقر أهل المعاصي، فلا أحد منّا يَدري بما سيختمُ لَه والأعمالُ بالخواتيمِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) وغيره.

الْمَرَضُ التاسعُ: احتقارُ الذُّنُوبِ

يجبُ عَلى المسلمِ العاقلِ أن يعلمَ صفات الإله الذِي يعبدُه ويتقربُ إليه، فلا بد أن تعلم أنَّك تعبدُ إلهًا عليمًا خبيرًا رقيبًا مهيمنًا قيومًا يعلمُ السرَّ وأخفَى مالكُ الملكِ الجبارُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى وعَزَّ وَجَلَّ.

فإذا علمَ العبدُ مَن الله، استعظمَ جميع الذُّنُوبِ وقد قَالَ غيرُ واحدٍ من الحكماء: لا تنظر إلى صغرِ المعصية، ولكن انظر إِلَى عظمِ من عصيت.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

قالَ العلامةُ السعديُّ[(١)]:

وهذه الآيةُ فيها غايةُ الترغيبِ في فعلِ الخيرِ ولو قليلاً والترهيبُ من فعلِ الشرَّ ولو حقيرًا. اهـ.

عن أنس رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعْرِ إِنْ كُنَّا لنَعُدُّها عَلَى عَهْدِ النَّبيَّ ﷺ مِنْ الموبِقَات»[(٢)] قَالَ أبو عبد الله: يَعْني بَذَلِكَ الْمُهلِكَاتِ.

وفي حديثِ ابن مسعودٍ رضي الله عن النبي ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحقرات**

---

(١) تفسير السعدي (٩٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢) موقوفًا عَلى أنس رضي الله عنه، وأبو عبد الله هو الإمام البخاري رحمه الله.

الذُّنُوبِ فإنَّمَا مثل مُحقرات الذُّنُوبِ كَقَوْم نَزَلُوا فِي بَطْن وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِه خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحقرات الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»(١).

وعن عائشة قالت قَال لي رسُولُ الله ص: «يا عائشةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الأَعْمَالِ فَإِنَّ لَهَا مِنْ الله طَالبًا»(٢).

قال ابنُ بطال(٣):

المحقراتُ إذا كثرت صارت كبارًا مع الإصرار.

وَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إنَّ المُؤْمِنَ إذا أَذْنَب كَانتْ نُكْتَهٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِه، فَإِنْ تَابَ وَنزَع وَاسْتَغْفَرَ صُقَلَ قَلْبُهُ فِإنْ زَاد زَادتْ فَذَلِكَ الرّانُ الذِي ذَكَرهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ»(٤). ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قالَ ابنُ القيم(٥):

في تفسيرِه للرّانِ : هو الذنبُ بعد الذنبِ ، وَقالَ الحسنُ : هو الذنب

---

(١) حسنه الحافظ في الفتح (١١/٣٣٧) أخرجه أحمد بسند حسن، وأخرجه الطبراني (١٠/٢١٢) والبيهقي في الشعب (١/٢٦٩) وغيرهم، كذا قَالَ شيخنا – حفظه الله-.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٤٢٤٣).

(٣) فتح الباري (١١/٣٣٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢/٢٩٧) وصحيح سنن ابن ماجه (٤٢٤٤).

(٥) التفسير القيم – نقلاً من التسهيل لتأويل التنزيل (١/١٦٩) لشيخنا- حفظه الله-.

عَلَى الذنب حَتَّى يعمى القلب اهـ.

مما تقدَّم يتبينُ لنا خطرَ تحقيرِ الذُّنُوبِ واقترافِها بحجةِ أنَّها صغيرةٌ فيجب عَلَى العبد الراغب فِي النجاة أن لا يتهاون بالذُّنوب وَلاَ يحقر ذنبًا صغيرًا كَانَ أم كبيرًا.

الْمَرَضُ العاشرُ: النفاقُ العقديُّ

المنافقونَ يظهرونَ غيرَ ما يبطنُون، وكذا يقولونَ بألسنتِهم ما ليسَ في قلوبِهم لا يعتقدونَ صدقَ القُرْآنِ وَلا صدقَ رسولِ الله ﷺ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ١، ٢].

قال الحافظُ ابنُ كثير:

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مخبرًا عن المنافقين: إنَّهم إنَّما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النَّبيَّ ﷺ فأما فِي باطنِ الأمرِ فليسوا كذَلِك بل عَلى الضدَّ من ذلك ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به، وإن كَانَ مطابقًا للخارج، لأنَّهم لم يكونوا يعتقدون صحةَ ما يقولون ولاَ صدقَه ولذا كذبَهم بالنسبةِ إِلَى اعتقادِهم(١).

حكم النفاق العقديَّ:

النفاقُ العقديَّ مخرجٌ من الملةِ؛ لأنَّ أصلَ الإيمانِ قولُ اللسانِ وتصديقُ القلبِ وعملُ الجوارحِ فلا بدَّ من تصديقِ القلب؛ لأنَّ المكذبَ بقلبِه قولَ الله ورسولِه حَتَّى لو قَالَ غير ما في قلبه فهو منافقٌ نفاقًا عقديًا خالدًا في النّارِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٥٢).

فِيهَا ﴾ [التوبة: ٦٨] قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

اعلم أنَّ أعمالَ الجوارحِ من صلاةٍ وصيامٍ وصدقةٍ وحجٍّ مع جحودِ القلبِ لا تنفعُ العبدَ لأنَّ عبدَ الله بن أبي بن سلول زعيمَ المنافقين كَانَ يصلي مع النَّبِيَّ ﷺ ويشهدُ معه المغَازي وعندما ماتَ نزلَ فيه[1] قولُ الله تَعَالَى ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤] فعلم اللهُ أن هَذَا المنافقَ يقول أقوالَ المؤمنين ويفعلُ أفعالَ المؤمنين ولكنه يجحدُ ذَلِكَ فِي الباطن غير مصدِّقٍ بكتابٍ وسنةٍ فماتَ عَلَى النفاقِ العقديِّ.

فليحذر المسلمُ من الشكِّ فِي أيِّ أمرٍ من أمور الدين كمن يشكُ في وجودِ عذابِ القبرِ أو فِي الحسابِ أو الجنةِ والنارِ أو المرورِ عَلَى الصراطِ... وما أشبه ذَلِكَ من الأمورِ الغيبيَّةِ وغيرِها بل يلزمُه أن يؤمنَ بكلِّ ما جاء في كتابِ الله وعلى لسانِ رسولِ الله ﷺ قَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١-٤] أي هَذَا الكتاب العظيم الَّذي هو الكتابُ عَلَى الحقيقةِ المشتملُ عَلَى ما لم تشتمل عَلَيْهِ كتبُ المتقدمين والمتأخرين من العلمِ العظيمِ والحقِّ المبين فلا ريبَ فيه وَلاَ شكَّ فيه بوجهٍ من الوجوه[2].

---

(١) أسباب النزول للعلامة مقبل بن هادي الوادي (١٢٣).
(٢) انظر تفسير السعدي (٤٠).

الْمَرَضُ الحادي عشر: النفاقُ العمليُّ

النفاقُ العمليُّ لا يخرجُ صاحبَه من الملةِ؛ لأنَّ المسلمَ المصدق الَّذِي ليس عِنْدَهُ شكٌّ قد يكون فيه خصلةٌ من خصالِ النفاقِ.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[١].

وَقَالَ ص: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ»[٢].

قال الإمامُ النوويُّ- رحمه الله [٣]:

اختلفَ العلماء في معناه، فالَّذِي قاله المحققون والأكثرون وَهُوَ الصحيحُ المختار: إنَّ معناه أن هَذِهِ الخصالَ خصالُ نفاقٍ وصاحبُها شبيهٌ بالمنافقين فِي هَذِهِ الخصالِ ومتخلقٌ بأخلاقِهم فإنَّ النفاقَ هو إظهارُ ما يبطنُ خلافَه، وَهَذا المعنى موجودُ فِي صاحبِ هَذِهِ الخصالِ، ويكونُ نفاقهُ فِي حقِّ من حدثَه ووعده وائتمنَه وخاصمَه وعاهدَه من النَّاس لا أَنَّهُ منافقٌ فِي الإسلامِ فيظهره وَهُوَ يبطنُ الكفرَ ولم يرد النَّبِيُّ ﷺ بهَذَا أَنَهُ منافقٌ نفاقَ الكفارِ المخلدين فِي الدركِ الأسفلِ من النارِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).

(٣) مسلم بشرح النووي (١/٣٢٣).

قال الخطابيُّ- رحمه الله-:

إنَّ معناه التحذيرُ للمسلم أن يعتادَ هَذِهِ الخصالَ الَّتِي يخافُ عَلَيْهِ أن تفضي به إِلَى حقيقةِ النفاق(١).

تنبيهٌ:

ومن الأهميةِ بمكان أن نذكرَ بعضًا من صفاتِ المنافقين الَّتِي جاءت فِي كتابِ الله وفي سنَّة نبينًا ﷺ وعَلَى العاقلِ أن يحترزَ من الوقوعِ فِي هَذِهِ الصفاتِ ما استطاعَ إِلَى ذَلِكَ سبيلاً حَتَّى لا يقعَ فِي النفاق وَهُوَ لا يشعر.

(١) المصدر السابق.

من صفات المنافقين

١- الاستهزاءُ باللهِ وبرسولِه وبالقُرْآنِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

قال القاسميُّ [١]:

قال الكيا: وفيه دلالةٌ عَلَى أنَّ اللاعبَ والجادَ فِي إظهارِ كلمة الكفرِ سواءٌ، وأنَّ الاستهزاءَ بآياتِ الله كفرٌ.

قال الرازيُّ: لأنَّ الاستهزاءَ يدلُّ عَلَى الاستخفافِ، والعمدة الكبرى فِي الإيمانِ تعظيمُ الله تَعَالَى بأقصَى الإمكانِ والجمعُ بينهما محالٌ.

وَقَالَ الإمامُ ابنُ حزم فِي الملل: كلُّ ما فيه كفرٌ بالبارئ تَعَالَى واستخفافٌ به أو بنبيٍّ مِن أنبيائِه أو بملكٍ من ملائكتِه أو بآيةٍ من آياتِه عَزَّ وَجَلَّ فلا يحلُّ سماعُه وَلاَ النطق به وَلاَ يحل الجلوسُ حيث يلفظ به.. ثُمَّ ساقَ الآيَة.

٢- سبُّ الله تَعَالَى أو سبُّ رسولِه ﷺ أو تكذيبهما:

قَالَ تَعَالَى عَنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨] أي ومن المنافقين من يعيبك فِي تفريق الصدقات، فيتهمونَك بعدمِ العدلِ، وأصلُ اللمزِ: الإشارةُ بالعينِ ونحوها.

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ١٦٢).

٣- الإعراضُ عن دينِ الإسلامِ وعيبِه والعمل عَلَى إبعادِ الناس عَنْهُ وعَلَى عدم التحاكم إليه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

قالَ ابنُ القيم[١]: هَذَا دليلٌ عَلَى أن من دعي إِلَى تحكيمِ الكتابِ والسُّنَّةِ فَأبى، إنَّه من المنافقين.

٤- التحاكمُ إِلَى الكفارِ، والحرصُ عَلَى تطبيقِ قوانينِهم مُفضَّلاً لها عَلَى حكمِ الله:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

قال ابنُ القيم- رحمه الله- فِي حده للطاغوت: أَنَّهُ كلُّ ما تجاوزَ به العبدُ حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ[٢] فكلُّ مَن حاكمَ إِلَى غيرِ كتابِ الله وسنةِ رسولِه ﷺ فقد حاكَم إِلَى الطاغوت الَّذِي أمرَ اللهُ تَعَالَى عبادَه المؤمنين أنْ يكفروا به، فإنَّ التحاكمَ ليسَ إلا إِلَى كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ومَن كَانَ يحكمُ بهما[٣].

---

(١) فتح المجيد (٤٣١).

(٢) قَالَ الإمام مالك: الطاغوت ما عبد من دون الله- المصدر السابق

(٣) نفس المصدر.

٥- اعتقادُ صحةِ المذاهبِ الهدَّامَةِ والدعوةُ إليها مع معرفةِ حقيقتها:

ومن هَذِهِ المذاهبِ ما جدَّ فِي هَذَا العصر من مذاهبَ هي فِي حقيقتِها حربٌ للإسلامِ ودعوةٌ للاجتماع عَلَى هدمِه، كالقوميَّةِ والوطنيةِ فكثيرٌ من المنافقين فِي هَذَا العصرِ ممن يسمَّونَ (علمانيين) أو (حداثيين) أو (قوميين) يعرفون حقيقةَ هَذِهِ المذاهبِ ويدعونَ إِلَى الاجتماع عَلَى هَذِهِ الروابطِ الجاهليةِ ويدعونَ إِلَى نبذِ رابطةِ الإيمانِ والإسلامِ الَّتِي ذكرهَا ربُّنَا جلَّ وعلا بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

٦- سبُّ وعيبُ العلماءِ والمصلحين وجميع المؤمنين الصادقين:

بغضًا لهم ولدعوتهم ولدينِهم قَالَ الله تَعَالَى عَنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣]. ولهَذَا تجد منهم فِي هَذَا العصرِ من يعيبُ العلماءَ والمصلحين ومن يعيبُ الدعاةَ والمجاهدين وحَتَّى الأخ الملتحي والأخت المنتقبة لا يتركون أحدًا ذَا دينٍ إلا حطوا من شأنِه.

وقد يكونُ ذَلِكَ فِي وسائلِ الإعلامِ المسموعةِ والمرئيةِ منافقٌ لا يخافُ اللهَ ربَّ العالمين.

٧- مدح أهلِ الكفرِ ومدحُ مفكريهم ونشرُ آرائِهم المخالفةِ للإسلامِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ١٤] ولهَذَا تجدُ منهم فِي هَذَا العصرِ من يمدحُ بعضَ الملاحدةِ فِي القديمِ والحديثِ أمثالَ (أبي العلاء المعري) و(الحلاج) و(فرويد) وغيرهم.

٨- قلةُ الطاعات والتثاقلُ والكسلُ عند أداءِ العباداتِ الواجبةِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

وَقَالَ ﷺ: «لَيْسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ صلاةِ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا...»[١].

٩- إيثارُهم الدُّنْيَا الفانيةِ عَلَى الآخرةِ:

وحرصُهم عَلَى حطامِ الدُّنْيَا أكثرُ من حرصَهم عَلَى طاعةِ الله الَّتِي هي سببٌ لسعادتِهم فِي الدُّنْيَا والآخرةِ ففي صحيح البخاريَّ عن النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي شأنِ المنافقين الذين يتخلفون عن صلاةِ الجماعةِ «... لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا [٢] سَمِينًا أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ»[٣].

فهم معرضون عمَّا فيه نجاتُهم، حريصون عَلَى ما لا يستفيدون منه إلا اليسيرَ وسيتركونه خلفَ ظهورهم، إنَّ كثيرًا منهم عِندَهُ القناعةُ بأن دينَ الإسلامِ هو الدينُ الحقُّ وأن أحكامَه كلَّها خيرٌ وعدلٌ ولكن بسببِ مجالستِه للكفارِ وانبهارِه بحضارةِ الغربِ المادِيةِ أو بسببِ مجالستِه لمن انبهَر بحضارتِهم من المنافقين من علمانيين[٤] وأمثالهم وقع فِي قلبِه بغض

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧) ومسلم (٢٥٢، ٦٥١).

(٢) العراق: العظم بلا لحم، وإن كان عَلَيْهِ لحم فهو عرق- فتح الباري (٢/١٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤) ومسلم (٦٥١).

(٤) العلمانية: بفتح العين، كلمة أعجمية ظهرت في أوروبا منذ القرن التاسع عشر، وترجمتها الصحيحة (اللادينية) وهي اصطلاح لا صلة له بالعلم وهي تطلق عَلَى

هَذَا الدينِ وأصبحَ يدعو إِلَى تقليدِ الكفارِ وتحكيمِ قوانينهم ويحاربُ شرعُ ربِّهِ ويعيبُه، وهَذَا منتهى السَّفَهِ، وهَذَا من تلاعبِ الشَّيْطَانِ بِهِم حَتَّى أوقعَهم فيما هو سببٌ لهلاكِهم وعذابهم فِي أزمات أبديةٍ سرمديةٍ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩][(١)].

الدعوة إلى إقامة الحياة عَلَى القوانين الوضعية زبالة الأذهان، والعقول البشرية، ومحاربة شرع الله تَعَالَى ودينه وفصل الدين عن الدولة والحياة- تسهيل العقيدة الإسلامية للشيخ عبد العزيز بن جبرين (١٠١) وما بعدها.

(١) نفس المصدر بزيادة وتصرف.

الْمَرَضُ الثاني عشر: الاغترار بالله تَعَالَى

أي الغرورُ الَّذِي يؤدي بالعبدِ إِلَى الانغماسِ فِي المعاصِي ثُمَّ تراه يقول: «اللهُ غفورٌ رحيمٌ» ويعتقدُ أنَّ هَذَا من بابِ حسنِ الظنَّ باللهِ، وهناك فارقٌ كبيرٌ بَيْنَ حسنِ الظنَّ بالله والاغترار بالله.

حسنُ الظنِّ(١): إن عملَ العملَ وحثَّ عَلَيْهِ وساقَ إليه فهو صحيحٌ وإن دعَا إلى البطالةِ والانهماكِ فِي المعاصي فهو غرورٌ، وحسنُ الظنَّ هو الرجاء، فمن كَانَ رجاؤُه هاديًا له إِلَى طاعةٍ وزاجرًا له عن معصيةٍ فهو رجاءٌ صحيحٌ، ومن كانت بطالتُه رجاءً ورجاؤُه بطالةً وتفريطًا فهو المغرورُ.

ولو أنَّ رجلاً كانت له أرضٌ يؤمل أن يعود عَلَيْهِ من مغلها ما ينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وحسن ظنه بأنه يأتي مغلها ما يأتي من حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض لعده النَّاس من أسفه السفهاء.

وكذَلِكَ لو حسنَ ظنُّه وقوِيَ رجاؤُه بأن يَجِيَهُ ولدٌ من غيرِ جماعٍ أو يصيرُ أعلمَ أهلِ زمانِه من غيرِ طلبٍ للعلمِ وحرصٍ تام عَلَيْهِ وأمثال ذلك، فكذَلِكَ مَن حسنَ ظنُّه وقوى رجاؤُه فِي الفوز بالدرجات العُلَى والنعيم المقيمِ من غير تقرُّبٍ إِلَى الله تَعَالَى بامتثال أوامرِه واجتنابِ نواهيه وبالله التوفيقُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨] فتأمل كيف جعلَ

---

(١) الداء والدواء لابن القيم (٥٢) وما بعدها.

رجاءَهم إتيانَهم بهذِه الطاعات؟؟

وَقَالَ المغرورون: إن المفرطينَ المضيعين لحقوقِ الله المعطلين لأوامره، الباغين عَلَى عبادِه المتجرئين عَلَى محارمه أولئك يرجَون رحمة الله. اهـ.

مما تقدَّم يتبينُ لنَا أنَّ الاغترارَ بالله تَعَالَى: هو التفريطُ فِي حقَّ اللهِ وتعطيل أوامرِه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣].

قال الحافظُ ابن كثير[1]:

أي لا تلهينكم بالطمأنينةِ فيها عن الدَّارِ الآخرةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الشَّيْطَانُ فإنه يغرُّ ابنَ آدمَ ويعدهُ ويمنَّيهُ وليسَ من ذَلِكَ شيءٌ بل كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٥٢٣).

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الآيات الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

من تأملَ آيات الكتابِ وجدَ أن التوبةَ والإنابةَ والرجوعَ إِلَى الله بفعلِ الطاعات وتركِ المنكرات شرطٌ لحصولِ الرحمةِ والعفوِ والمغفرةِ وهَذَا ظاهرٌ فِي الآيات الَّتِي ذَكرناها آنفًا وفي غيرِها من الآيات الَّتِي تدلُّ عَلَى نفسِ المعنى.

الغرورُ بالأماني

يَا مغرورًا بالأماني لُعِن إبليسُ وأهبطَ من منزلِ العزِّ بتركِ سجدةٍ واحدةٍ أُمِرَ بها وأُخرجَ آدمُ من الجنةِ بلقمةٍ تناولها وحُجبَ القاتلُ عنها بعد أن رآها عيانًا بملءِ كفٍ من دم، وأُمرَ بقتلِ الزَّاني أشنعَ القتلاتِ بإيلاج[(١)] قدرِ الأنملةِ فِيما لا يحلُّ، وأُمر بإيساعِ الظّهرِ سياطًا بكلمةِ قذفٍ أو بقطرةٍ من مسكرٍ وأبان عضوًا من أعضائِك بثلاثةِ دراهم[(٢)] فلا تَأمنه أن يحبسَك فِي النَّارِ بمعصيةٍ واحدةٍ من معاصيهِ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴾ [الشمس: ١٥] وَدَخلت امرأةُ النارَ فِي هرَّةٍ [(٣)] وإنَّ الرجلَ ليتكلمُ الكلمةَ وَلاَ يُلقي لها بالاً يَهوي بِها فِي النَّارِ أبعدَ ما بَيْنض المشرقِ والمغربِ[(٤)]...

كيفَ الفلاحُ بَيْنَ إيمانٍ ناقصٍ وأملٍ زائدٍ ومرضٍ لا طبيبَ لَهُ وَلاَ عائدَ وهوى مستيقظٍ وعقلٍ راقدٍ ساهٍ فِي غمرتِه، عَمَّ[(٥)] فِي سكرتِه، سابحًا فِي لجةِ جهلِه، مستوحشًا من ربِّه، مستأنسًا بخلقِه، ذِكرُ النَّاسِ فاكهتُه وَقُوتُه، وَذكْرُ الله حبسُه وموتُه، لله منه جزءٌ يسيرٌ من ظاهرِ وقلبِه ويقينِه لغيرِه[(٦)].

---

(١) الجماع.

(٢) يشير إلى حديث "تقطع اليد في ربع دينار فصاعدًا" وكان ربع دينار يومئذ ثلاثة دراهم والدينار اثنى عشر درهمًا، أخرجه البخاري (٤/٢٩٦) ومسلم (٥/١١٢) – حاشية الفوائد لابن القيم (٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣١٨) ومسلم (٢٦١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٧٧) ومسلم (٢٩٨٨).

(٥) أي مترددًا متحيرًا– المصدر السابق.

(٦) انظر الداء والدواء لابن القيم.

الْمَرَضُ الثالثَ عشرَ: الأمنُ من مكرِ اللهِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قالَ الحسنُ البصريُّ:

المؤمنُ يعملُ بالطاعاتِ وَهُوَ مشفقٌ وجلٌ خائفٌ والفاجرُ يعملُ بالمعاصِي وَهُوَ آمنٌ[١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ) أي: أعرضوا عَنْهُ وتَناسُوه وجعلُوه وراءَ ظهورِهِم (فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ) أي: فَتحنَا عليهم أبوابَ الرزقِ من كلَّ ما يختارُون، وهَذَا استدراجٌ منه تَعَالَى وإملاءٌ لهم عياذًا بالله من مكرِه، ولهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ من الأموالِ والأولادِ والأرزاقِ (أخذناهم بغتةً) أي: عَلَى غفلةٍ (فإذَا هم مبلِسُون) أي: آيسون من كلَّ خيرٍ.

وعن عقبةَ بن عامرٍ عن النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنما هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»[٢] ثُمَّ تلا رسُولُ اللهِ ﷺ (فلما

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٥٢).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٤٥).

نسوا ما ذكَّروا به... الآية) [١] أي أنَّ اللهَ يستدرجَهُم بالنِّعمِ إذَا عصَوهُ وَيملِي لهم ثُمَّ يأخُذُهُم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ[٢].

قالَ بعضُ السَّلفِ: ربَّ مستدرج بنعمِ الله عَلَيْهِ وَهُوَ لا يعلمُ وربَّ مغرورٍ بسترِ الله عَلَيْهِ وَهُوَ لا يعلمُ وربَّ مفتونٍ بثناءِ النَّاس عَلَيْه وَهُوَ لا يعلمُ[٣].

الفرقُ بَيْنَ الاغترارِ بالله تَعَالَى والأمنِ من مكرِ الله:

أنَّ الأولَ يقترفُ أنواعَ الذُّنُوبِ والمعاصِي الظاهرةِ والباطنةِ ويتعلقُ بنصوصِ الرجاء الَّتِي جاءت فِي الكتابِ والسُّنَّةِ كقول الله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقولُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّة»[٤] وَما أشبَهُ ذَلِكَ من الأدلةِ الدالةِ عَلى رحمةِ الله وقد تقدَّمَ ذكرُ بعضٍ مِنها فِي معرض الكلامِ عن هَذَا المرضِ مع بيانِ حقيقةِ معنَاها[٥].

أمَّـا الأمنُ من مكـرِ الله تَعَالَى فسببهُ فسادُ التصورِ ، بمعنى أَنَّهُ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٩).
(٢) فتح المجيد (٣٩).
(٣) الداء والدواء لابن القيم (٤٩).
(٤) صحيح سنن أبي داود (٣١١٦) ومسند الإمام أحمد (٢٢٣٨٤).
(٥) أن الاغترار بالله مقدمة الأمن من مكره، فإنه إذا اغترَّ فسد تصوره، وفساد التصور هو مقدمة كل فساد- كذا قَالَ الشيخ/ أبو إسحاق الحويني عند مراجعته لهَذَا الكتاب فهَذَا من كلامه وتعليقه عَلَى الكتاب.

يَعصي الله وَلاَ تقع عَلَيْهِ العقوباتُ الدنيويةُ وقد يكونُ آكلاً للربَا قاطعًا للرحمِ عاقًا لوالدَيهِ يخوضُ في أعراضِ الخلقِ ويمشي بَيْنَ النَّاسِ بالنميمةِ وقد تكونُ امرأةً متبرجةً عاصيةً لله ورسولِه ﷺ ومع ذَلِكَ فَاللهُ يرزقَهُ المالَ والصحةَ والأولادَ وصنوفًا من مطالبِهِ ورغائِبِهِ فيفرح بذَلِك ويتصورُ أنَّ اللهَ رضي عَنْهُ إذ لم يعاقبْه مع إصرارِه عَلَى المعاصي بل يعتقدُ أَنَّهُ أفضلُ من العبدِ الطائعِ لله القائم عَلَى طاعتِه الحافظِ لأمرِه ونهيِه فقد يبتلى هَذَا الطائع بمرضٍ أو فقرٍ أو حرمانِ الذريةِ وإلى غير ذَلِكَ من أنواعِ الابتلاءِ ويصبرُ وَلاَ يصدُّهُ ذَلِكَ عن الطَّاعةِ فيتصورُ العاصِي أَنَّهُ أفضلُ منه إذْ لم يُبْتَلَ مَثْلَهُ وهَذَا بعينِه الجهلُ بسننِ الله تَعَالَى وتركُ تدبرِ كتابِه وسنةِ نبيِهِ ص.

فالابتلاءُ سنةٌ ماضيةٌ وَلَن تتبدلَ فَهِي تمحيصٌ للمؤمنِ وعقوبةٌ للفاجرِ والكافرِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٢].

قالَ العلامةُ القاسميُّ[(١)]:

أي: أَحَسِبَ الذينَ أجرُوا كلمةَ الشهادةِ عَلَى ألسنتِهم وأظهَرُوا القولَ بالإيمانِ أنَّهم يتركُون بذَلِكَ غير ممتحنين بل يَمتَحِنُهُم اللهُ بضروبِ المحنِ حَتَّى يبلوَ صبرَهم وثباتَ أقدامِهم وصحةَ عقائدِهِم، لتمييز المخلصِ من غير المخلق كَمَا قَالَ ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ

(١) محاسن التأويل (٥/٤٣٩) وما بعدها.

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وكقولِه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وكقولِه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤] إِلَى أن ذكر قوله تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٤] أي يفوتونَا فلا نقدر عَلَى مجازاتِهم بمساوئ أعمالهم: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئسَ الَّذِي يحكمُونَه حكمهم اهـ.

والآياتُ الدالةُ عَلَى سننِ الابتلاءِ- وأنها ماضيةٌ فِي أهلِ الإيمانِ- كثيرةٌ جدًّا- لا يتسعُ المقامُ لسردِهَا- فضلاً عما جاءَ فِي السنةِ المطهرةِ لتأكيدِ هَذَا المعنى، فقد أخرجَ الترمذيُّ بإسنادٍ صحيح لغيرِه من حديث سعدِ بن أبي وقاص ﷺ قَالَ: قلتُ: يَا رسَولَ الله أيُّ النَّاسِ أشدُ بلاءً؟ قَالَ: «الأَنبيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ فَيُبتَلى الرَّجُلُ عَلَى حَسَب دِينهِ فَإنْ كَانَ دِينُهُ صُلبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ وَإنْ كَانَ فِي دِينِه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَب دِينهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بَالْعَبدْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمشي عَلى الأَرض مَا عَلَيْه خَطيئةٌ»(١).

وَعنْ أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ: دخلتُ عَلَى النَّبِيَّ ﷺ وَهوَ يوعَك فوضعت يديَّ عَلَيْهِ فوجدتُ حرَّه بَيْنَ يديَّ فوقَ اللحافِ فقلت: يا رسُولَ الله! ما أشدّهَا عليكَ قَالَ: «**إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لنَا الْبَلاءُ**

---

(١) صحيح الترمذي (٢٣٩٨).

وَيُضَعَّفُ لنَا الأَجْرُ» قلت: يا رسُولَ الله أيُّ النَّاسِ أشدُ بلاءً قَالَ «الأنبياء» قلت: يا رسول الله ثُمَّ مَن؟ قَالَ: «ثُمَّ الصَّالِحونَ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلاَّ الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بَالرَّخَاء»[١].

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخافُونَهُ عَلَيْه»[٢] .

وفي رواية: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ»[٣].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[٤].

مَما تقدَّمَ يتبيَّن لنَا أنَّ رغدَ العيشِ وكثرةَ الأموالِ والأولادِ ليسَ دليلاً عَلَى حبَّ الله تَعَالَى العبد ورضَاه عَنه، وأيضًا فَإنَّ نقصَ الأموالِ والأولادِ وضيقَ العيشَ ليسَ دليلاً عَلَى غضبِ الله عَلى العبدِ، بل الأصلُ أنَّ المؤمنَ مُبتلى كَمَا قدَّمنا الأدلةَ عَلى ذَلِك من كتابِ الله وسنةِ نبيِّنَا ﷺ قالَ الشاعرُ:

إلهــي: لَــولا محبَّــتُكَ للغفــرانِ مَـا أمهلـتَ مَـن يُبَـارزُكَ بالعِصيَانِ

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٢٤) – المصدر السابق.

(٢) مسند الإمام أحمد (٥/٤٢٧).

(٣) مسند الإمام أحمد (٥/٤٢٨، ٤٢٩).

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢٣٩٩).

الْمَرَض الرابعَ عشرَ
القنوطُ مِنْ رَحْمةِ الله

القنوطُ مِنْ رَحْمَة الله هو اليأسُ منه سُبْحَانَه وَتَعَالى أن يتوبَ عَلَيْه، وأن يغفرَ له ويرحمَه، وَهُوَ يقابلُ الأمنَ من مكرِ الله وكلاهما من أمراضِ القلوبِ فَضْلاً عن أنَّ اليأسَ مِنْ رَحْمَةِ الله كبيرةٌ من الكبائرِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فدلَّت الآيةُ عَلَى أنَّ اليأسَ من روحِ الله- أي مِنْ رَحْمَةِ الله- من الكبائر لأنَ اللهَ وصفَهم بأنَّهم كَافِرون.

وَعَن ابنِ مسعودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بالله وَالأمَنُ مِنْ مكرِ الله والقنوطُ مِنْ رَحْمةِ الله وَاليَأسِ مِنْ رَوحِ الله»[١].

القنوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله يجعلُ العبدَ يقطعُ الرجاءَ والأملَ في الله أن يغفرَ له فيفتح بذَلِكَ بابًا للشيطانِ ويمهدُ لهُ الطريقَ للدخولِ عَلَيْهِ فَلا يَبْرَحُ بتركِه حَتَّى يحولَ بينَه وبينَ التوبة، يقولُ لهُ أنت لا تصلحُ للتوبةِ أنت تبتَ قبلَ ذلِكَ مرات ثُمَّ رجعتَ لا فائدةَ مِنْكَ وَلا أَمَلَ فِيْكَ لن يغفرَ اللهُ لَكَ وَهكذا، لا يزالُ بالعبدِ حَتَّى يصلَ به إِلَى القنوطِ من رحمتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهَذَا من سوءِ الظَّنِ بالله إِذْ يعتقدُ أنَّ ذنوبَه أكبرُ من أن يغفرَهَا اللهُ ويغفلُ عن قولِ أرحمِ الراحمين الكريمِ المنان

---

(١) صحيح رواه عبد الرزاق (١٩٧٠١) ، والطبراني (٨٨٧٨٣، ٨٧٨٤، ٨٧٨٥)، وقال ابن كثير في تفسيره (٤١٦/١) : هو صحيح بلا شك- نقلا من فتح المجيد (٣٩٢).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

أي لا تَيأسُوا مِنها فتلقُوا بأيديكم إِلَى التهلكةِ وتقولُوا قد كثرت ذنوبُنَا وتراكمت عيوبُنَا فليسَ لها طريقٌ يزيلها وَلا سبيلٌ يصرفها، فتبقون بسبب ذَلِكَ مصرَّينَ عَلَى العصيانِ متزوِّدينَ ما يغضبُ عَليكم الرحمنَ ولكن اعرفوُا ربَّكُم بأسمائه الدالة عَلَى كرمِه وجودِه، واعلموا أَنَّهُ يغفرُ الذُّنُوبَ جميعًا من الشَّرْكِ والقتلِ والزّنَا والرِّبَا والظلم وغير ذَلِكَ من الذُنُوبِ الكبارِ والصغارِ (إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ) ... لكن لمغفرتِه ورحمتِه ونيلِهما أسبابٌ إنْ لم يأتِ بها العبدُ فقد أغلقَ عَلَى نفسِه بابَ الرحمةِ والمغفرةِ وأعظمُها وأجلّهَا بَل لا سببَ لها غيره: الإنابةُ [١] إِلَى اللهِ تَعَالَى بالتوبةِ النصوح والدعاءِ والتضرعِ والتألُّهِ والتعبدِ[٢].

عَنْ أَبي سعيدٍ الخدري عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَل تِسْعَةً وَتسعِينَ نَفْسًا فَسأَلَ عَنْ أَعْلَم أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِب فَأَتَاهُ فقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعةً وتسعينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقَالَ: لاَ؛ فَقَتَلَهُ فكمَّلَ بِهِ مِائةً ثُمَّ سَأل عَنْ أَعْلَم أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّه قَتَل مِائةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ، إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُناسًا يَعْبُدُونَ الله فاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ وَلا تَرْجع إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْض**

---

(١) الإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة أي لا سبب للرحمة والمغفرة إلا التوبة.
(٢) تفسير السعدي (٧٢٨) باختصار.

سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاختصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَاب فَقَالتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمةِ: جَاءَ تَائبًا مُقبلاً بِقلْبِهِ إِلَى الله، وَقَالَتْ مَلاَئكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورةِ آدَمي فَجَعلُوهُ بَيْنهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأرْضَيْنِ فَإِلَى أَيتهمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فقَاسُوهُ فَوجَدُوهُ أدْنى إِلى الأرْضِ الَّتِي أَرَادَ فقَبضَتْهُ مَلائكَةُ الرَّحْمةِ»[١].

هَذَا الحديثُ من الأحاديثِ الدالةِ عَلى سعةِ عفوِ الله ورحمته وجوده وكرمِه هَذَا العبدُ قتلَ مائةً ولم يعملْ خيرًا قَط لكن بصدقِ النيةِ وصدقِ العزم عَلَى التوبة[٢] قبضتهُ ملائكةُ الرَّحمةِ، فلا ينبغي لأحدٍ مَهْمَا بلغت ذنوبُهُ أنْ يقنطَ مِنْ رَحمَةِ الله لكن عَلَيْهِ بصحبةِ أهلِ الخيرِ والصلاح والعلماء الربانيين والزهادِ الورعين وكلّ من يأخذُ بيده إِلَى مولاه سُبحَانه وتَعَالَى وَعزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٣٧٦٦) واللفظ لمسلم.

(٢) قَال العلامة الشيخ/ أبو إسحاق الحويني: هو لم يصدق النية والعزم فقط، بل تحركت جوارحه بسيره إلى أرض التوبة، وإنّما نبهت عَلى هذا حتى لا يتصور عاصٍ أنه إذا نوي وعزم دون التفات إلى عمل الجوارح أنه صار تائبًا ممدوحًا. انتهى كلام الشيخ.

(قلت): وهَذَا ما أردت أن أقول؛ لأن معتقد أهل السنة والجماعة قاطبة أن الإيمان قول وعمل ونية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وبالله التوفيق.

الترهيبُ من تقنيط عباد الله مِنْ رَحمَةِ الله:

فلا يَنبغي لأحدٍ أن يُقنطَ أحدًا مِنْ رَحْمَةِ الله وَلاَ يجوزُ لبشرٍ أنْ يحكمَ عَلَى أحدٍ أَنَّهُ من أهلِ الجنةِ أو أَنَّهُ من أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ ذَلِكَ منازعةٌ لله فِي ملكِه وحكمِه وَهُوَ وحده مالكَ الملك لَه الخلق ولَه الأمرُ ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ فإن عَذَّبَ أهلَ السموات والأرض عذَّبَهُم بعدلِه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ وإن رَحِمَ من فِي السموات ومن فِي الأرض فبفضلِهِ ومحضِ جودِه وكرمِه.

فيأيُهَا المقنط غيره لا تتسرعْ فِي الحكمِ عَلَى عبادِ الله فأنتَ لا تدري ما قدرُك عند الله، وقد جاءَ الحديثُ القدسيُّ- الَّذِي رواهُ النَّبِيُّ ﷺ عن ربَّ العزةِ يشير لَى هَذَا المعنَى، قَالَ ص: «**إنَّ رَجلاً قَالَ: وَالله لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتأَلَّ**[1] **عَلَيَّ ألا أَغْفِر لِفُلان، فَإِنَّي قَدْ غَفَرتُ لِفُلاَنٍ وَأَحْبطْتُ عَمَلَكَ**»[2].

وعن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**كَانَ رَجُلاَنِ فِي بَنِي إِسْرَائيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فيقُولُ أَقْصِرْ فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَىَ ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبَّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ والله لاَ يَغفِرُ اللهُ لَكَ أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّة، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فقالَ لِهَذا الْمُجْتَهِد: أَكُنْتَ بِي عالمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلمُذْنِب: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّة**

(١) يتألى: يحلف والألية اليمن- شرح مسلم (٨/ ٤٢٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

بِرَحْمَتِي وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»[١].

هَذَان الحديثان فِيهما من التَّرهيبِ ما يدعُو كلَّ مقنطٍ أنْ يكفَ عن تقنيطِ خلقِ اللهِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى.

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٩٠١) وصححه شيخنا.

الْمَرَضُ الخامسَ عشرَ
التسويفُ بالتوبةِ

كثرةُ الذُّنُوبِ تَضعفُ القلبَ عن إرادَتِه فتَقْوَي إرادة المعصيةِ وَتَضْعُفُ إرادةُ التَّوبةِ شَيئًا فَشيئًا، إِلَى أنْ تنسلخَ من قلبِه إرادةُ التوبةِ بالكليةِ فلو ماتَ نصفهُ تابَ إِلَى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبةِ الكذابين باللسان بشيءٍ كثيرٍ وقلبُهُ معقودٌ بالمعصيةِ، مصرٌّ عليها، عَازمٌ عَلَىَ مواقعتِها متى أمكَنَه، وهَذَا من أعظمِ الأمراضِ وأقربها إِلَى الهلاك(١).

التوبة(٢)

التوبةُ: هي رجوع العبدِ إِلَى الله ومفارقتُه لصراطِ المغضوبِ عَليهم والضالين، وذَلِكَ لا يحصلُ إلا بهداية الله إِلَى الصراطِ المستقيم وَلاَ تحصلُ هدايتُه إلا بإعانته وتوحيدِه.. فإنَّ الهدايةَ التامةَ إِلَى الصراطِ المستقيمِ لا تكونُ مع الجهلِ بالذُّنُوبِ وَلاَ مع الإصرارِ عليها، فإنَّ الأولَ جهلٌ ينافي معرفةَ الهدى والثاني غيٌّ يُنَافي قصدَه وإرادتَه فلذَلِكَ لا تصحُ التوبةُ إلا بعد معرفةِ الذنبِ والاعترافِ به وطلبِ التخلصِ من سوءِ عواقبِه أولاً وآخرًا.

الاعتصامُ بالله... فإنَّ العَبْدَ لو اعتصمَ بالله لما خرجَ عن هدايةِ الطاعةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] فلو كملت عصمتُه بالله لم يخذله أبدًا، قَالَ تَعَالَى:

---

(١) الداء والدواء للعلامة ابن القيم (٧٤).

(٢) ملتقط من تهذيب المدارج لابن القيم (١٢١) وما بعدها باختصار وتصرف.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]. أَي مَتى اعتصمتُم به تولاَّكُم ونصرَكُم عَلى أنفسِكم وعَلَى الشَّيْطَانِ وهما العدوانِ اللذانِ لا يفارقانِ العبدَ، وعدَاوَتهُما أصر من عداوةِ العدو الخارجِ فالنصرُ عَلَى هَذَا العدوِ أهمُ ، والعبدُ إليه أحوجُ وكمالُ النصرةِ عَلَى العدوِ بحسبِ كمالِ الاعتصامِ بالله ونقصُ هَذَا الاعتصام يُؤدي إِلَى الانخلاعِ من عصمةِ الله وَهُوَ حقيقةُ الخذلانِ فما خَلَّى الله بَينَكَ وَبينَ الذنبِ إلا بعد أن خذَلَكَ وَخَلَّى بينك وبين نفسِك ولو عصمَك ووفقَكَ لما وجدَ الذنبُ إليكَ سَبيلاً.

حقيقةُ التوبةِ: هي الندمُ عَلى ما سلفَ منه فِي الماضي، والإقلاعُ عَنهُ فِي الحالِ والعزمُ عَلَى ألا يعاودَه فِي المستقبلِ.

ومن اتهام التوبةِ: طمأنينتُه ووثوقُه من نفسِه بأَنَّه قد تَاب، حَتَّى كأَنَّه قد أعطي مَنشورًا بالأمانِ فَهَذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمودُ العين واستمرارُ الغفلةِ وأن لا يستحدث بعد التوبةِ أعمالاً صالحةً لم تكن له قبل الخطيئةِ.

التوبةُ المقبولةُ الصحيحةُ لها علامات:

منها: أن يكونَ بعد التوبةِ خيرًا مما كَانَ عَلَيْهِ قَبلَها.

ومنها: أَنَّهُ لا يزال الخوفُ مُصاحبًا له لا يأمنُ مكرَ الله طرفةَ عين، فخوفُه مستمرٌ إِلَى أن يسمعَ قولَ الرُّسلِ لقبضِ روحِه ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزولُ الخوفُ.

ومنها: انخلاعُ قلبِه وتقطعِه ندَمًا وَخَوفًا، وهَذَا عَلى قدرِ عِظم الجناية

وصغرِها وهَذَا تأويلُ ابن عيينةَ لقوله تعالَى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠] قَالَ: تَقطعُها التوبةُ وَلاَ ريب أنَّ الخوفَ الشديدَ من العقوبةِ العظيمةِ يوجبُ انصداعَ القلبِ وانخلاعَه وهَذَا هو تقطعه وهَذا حقيقةُ التوبةِ لأَنَّه يتقطعُ قلبُه حسرةً عَلَى ما فرَّطَ منه وخوفًا من سوءِ عاقبتِه... ومن لم يتقطعْ قلبُه في الدُّنْيا عَلَى ما فرطَ حسرةً وخوفًا تقطعَ فِي الآخرةِ.

العبدُ إما تائبٌ وإما ظالمٌ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وهذه الآيةُ فِي سورةٍ مدنيةٍ، خاطبَ اللهُ بها أهلَ الإيمانِ وخيارَ خلقِه أن يتوبُوا إليه بعد إيمانِهم وصبرِهم وهجرتِهم وجهادِهم ثُمَّ عَلَّقَ الفلاحَ بالتوبةِ تعليقَ المسببِ بسببِه وأتى بأداةِ «لعل» المشعرةِ بالترجي، إيذَانًا بأَنَّكُم إنْ تُبتُم كُنتُم عَلى رجاءِ الفلاحِ فلا يَرجُو الفلاحَ إلا التَّائِبُون، جَعَلنَا اللهُ مِنْهُم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قسَّمَ العبادَ إِلَى تائبٍ وظالمٍ ومن ثَمَّ ليس قسمٌ ثالثٌ، وأوقعَ اسم «الظالم» عَلَى من لم يتبْ وَلاَ أظلمَ منه لجهلِه بربِّهِ وبحقِّهِ ويعيبِ نفسِه وآفاتِ أعمالِه.

الفطرةُ تأْبَى القبائح:

ذُكِرَ أنَّ ذَلِكَ من لطائفِ التوبةِ قَالَ: أنْ يرى التائبُ قُبْحَ ما نهى اللهُ عنه، وحُسْنَ ما أمرَ به وأنه كَانَ مفسدًا حين ركبَ ما نهاه اللهُ تَعَالَى عَنْهُ

مفوتًا لمصلحة حين قصَّرَ في تنفيذِ ما أرادَه اللهُ منه وأنَّ اللهَ تَعَالَى ما نَهى إلا عن أمرٍ قبيح بالذات وما أمرَ إلا بأمرِ حسنِ الذاتِ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَه فَطَرَ عبادَه عَلَى استحسانِ الصَّدقِ والعدلِ والعفةِ والإحسانِ ومقابلةِ النِّعمِ بالشُكرِ وَفطرَهُم عَلى استقباحِ أضدادها. ولهَذا قِيلَ لبعضِ الأعراب وقد أسلمَ لما عرفَ دعوتَه ﷺ عن أي شيءٍ أسلمتَ؟ وما رأيتَ منه مما دلَّكَ عَلَى أنَّهُ رسولُ الله؟ قَالَ: «مَا أَمرَ بشيءٍ فقَالَ العقلُ: لَيْتَهُ نَهَى عَنْهُ وَلاَ نهى عَنْ شيءٍ فَقالَ العقلُ: لَيْتَهُ أَمرَ بِهِ، وَلا أَحلَ شَيْئًا فقالَ العقلُ: لَيْتَهُ حَرَّمَهُ وَلا حَرمَ شَيْئًا فقالَ العقلُ: لَيْتَهُ أَبَاحَهُ» فانظر إِلَى هَذَا الأعرابيَّ وصحة عقلِه وفطرتِه وقوةِ إيمانِه واستدلالِه عَلَى صحةِ دعوتِه بمطابقةِ أمرِه لكلِّ مَا حسنَ فِي العقل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي لِغير شيءٍ لا تؤمرون وَلاَ تنهون وَلاَ تثابون وَلاَ تعاقبون والعبث قبيحٌ فدلَّ عَلىَ أن قبحَ هَذَا مستقرٌ فِي الفطرِ والعقولِ ولذَلِك أنكره عليهم إنكارًا منبه لهم عَلى الرجوع إِلَى عقولهم وفطرهم..

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] فأنكَر سُبْحَانَهُ هَذَا الحسبانَ إنكارًا منبهً للعقلِ عَلى قبحِه وأنه سيِّئ والحاكمُ به مشيءٌ ظالمٌ وكذَلِكَ قولُهُ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وهَذَا استفهامُ إنكارٍ يدلُّ عَلى أن هَذَا قبيحٌ فِي نفسِه منكرٌ تُنْكِرهُ العقولُ والفطرُ.

ولذَلِكَ اعترفوا فِي النارِ بأنهم لم يكونوا من أهلِ السَّمَعِ والعقل

وأنهم لو رجعوا إِلَى أسماعِهم وعقولِهم لعلموا حسنَ ما جاءت به الرسلُ وقبحَ مخالفتِهم.

قَالَ تَعَالَى حاكيًا عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وكم يقولُ لهم فِي كتابِه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فينبِهَهُم عَلَى ما فِي عقولِهم وفطرِهم من الحسنِ والقبحِ ويحتجُ عليهم بها ويخبرُ أَنَّهُ أعطاهموها لينتفعُوا بها ويميزوا بها بَيْنَ الحسنِ والقبحِ والحقِ والباطلِ.

من أحكام التوبةِ:

أنَّ المبادرةَ إِلَى التوبةِ من الذَّنبِ فرضٌ عَلَى الفورِ وَلاَ يجوزُ تأخيرُهَا فمتى أَخَّرَهَا عَصَى بالتأخيرِ فإِذَا تابَ من الذنبِ بَقِي عَلَيْهِ توبةٌ أخرى، وهي توبتُه من تأخيرِ التوبةِ قبل أن تخطر هَذِهِ ببال التائبِ بل عِنْدَهُ أَنَّهُ إذا تابَ من الذنبِ لم يبق عَلَيْهِ شيءٌ آخر وقد بَقِي عَلَيْهِ التوبةُ من تأخيرِ التوبةِ، وَلاَ يُنْجِي من هَذَا إلا توبةٌ عامةٌ مما يعلمُ من ذنوبه ومما لا يعلمُ.. انتهى.

اعلم أيُهَا المسوفُ أن سرَّ هَذَا المرَضِ هو الغفلةُ عن تدبرِ قولِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤] فمتى أيقنَ العبدُ أَنَّهُ لا يعلمُ كيف وأين ومتى ينقَضي الأجلُ بادرَ بالتوبةِ وحمدَ اللهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ ما زالَ فِي عمرِه بقيةٌ للرجوع والإقلاعِ عن الذُّنُوب والمعاصي ظاهرًا وباطنًا، واللهُ المستعانُ.

الْمَرَضُ السادسَ عشرَ: العجبُ

العَجَبُ: الإنسانُ المعجبُ بنفسهِ أو بالشيءِ وقد أعجبَ فلانٌ بنفسِه فهو معجبٌ برأيِه وبنفسِه[١].

كما أنَّ استقلالَ المعصيةِ يُعدُّ من الذُّنُوبِ، أَيَضًا فإنَّ استكثارَ الطاعةِ ذنبٌ وَهُوَ ما يسمى بمرضِ العجبِ.

قالَ ابنُ القيمِ:

والعارفُ من صغرت حسناتُهُ فِي عينِه وعظمت ذنوبُهُ عِنْدَهُ وكلما صغرت الحسناتُ فِي عينِكَ كبرت عند الله وكلَّما كبرت وعظمت فِي قلبِكَ قلَّت وصغرَت عندَ الله وسيئاتُك بالعكسِ وَمَنْ عَرِفَ اللهَ وحقَّهُ ومَا يَنبغي لعظمتِه من العبوديةِ تلاشَت حسناتُه عنده، وصغرَت جدًّا في عينِه وعلمَ أنَّها ليست مما ينْجُو بها من عذابِه وأنَّ الَّذِي يليقُ بعزتِه ويصلحُ له من العبوديةِ أمرٌ آخرُ...

لأَنَّه كُلما استكثَر منها فتحَت لهُ أبوابُ المعرفةِ باللهِ والقربِ منه فشاهدَ قلبُه من عظمتِهِ - سُبْحَانَهُ- وجلا له ما يستصغرُ معه جميعُ أعمالِه... وإذا كثرت فِي عينِه وعظمَت دلَّ عَلَى أَنَّهُ محجوبٌ عن اللهِ غير عارفٍ به وبما ينبغي له...[٢].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

---

(١) لسان العرب (٦/ ١٩).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٥٤) باختصار.

قالَ مجاهدٌ: المعنى يَحُولَ بَيْنَ المرءِ وعقلِه حَتَّى لا يَدري ما تصنع بنانه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي عقل، واختار الطبريُّ: أن يكون ذَلِكَ إخبارًا من الله تَعَالَى أَنَّهُ أملك لقلوب عبادِه منهم وأَنَّه يَحولُ بينهم وبينهَا إذَا شاءَ حَتَّى لا يقدرَ ذوُ قلبٍ أن يدركَ به شيئًا إلا بمشيئةِ الله عَزَّ وَجَلَّ[١].

عَن شهرِ بن حوشبٍ قَالَ: قلتُ لأم سلمةَ يا أمَّ المؤمنين ما كَانَ أكثرُ دعاءِ رسولِ الله ﷺ أن كَانَ عندك، قالت: كَانَ أكثرُ دعائِه: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك، قَالت: فقلت: يا رسولَ الله ما أكثرَ دعاءَك يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلبِي عَلَى دِينِك، قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ»[٢].

فإذَا كانت الهدايةُ معروفةً والاستقامةُ عَلَى مشئتِه موقوفةً والعاقبةُ مغيبةً والإرادةُ غير مغالبةٍ فلا تعجبْ بإيمانِك وعملِك وصلاتِك وصومِك وجميع قربك، فإن ذَلِكَ وإن كَانَ من كسبِك فإنَّه من خلق ربك وفضله الدار عليك، فمهما افتخرتَ بذَلِك كنتَ مفتخرًا بمتاعِ غيرِك ربما سلبه عنك فعادَ قلبُك من الخيرِ أخلَى من جوفِ العيرِ[٣].؟

قالَ رجلٌ لأحدِ الزهادِ: إني أكثرُ البكاءَ فقال: إنَّك إنْ تَضحَكْ وأنت مقرٌ بخطيئتك خيرٌ من أن تبكي وأنت مدلٌ بعملِك فإن المدلَ لا يصعدُ

---

(١) الكبائر للذهبي (٣٠٢).
(٢) صحيح سنن الترمذي (٣٥٢٢) تخريج الحديث.
(٣) انظر الكبائر للإمام الذهبي.

عملُه فوقَ رأسِه[(١)].

قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ [(٢)]:

وقد يعجبُ بحالِه فيظن حصولَ مرادَه فيُخذَلُ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

وكثيرًا ما يقرنُ النَّاسُ بَيْنَ الرِّيَاءِ والعجبِ فالرِّيَاءُ من بابِ الإشراكِ بالخلقِ والعجبُ من بابِ الإشراكِ بالنفسِ وهَذَا حالُ المستكبرِ فالمرائي لا يحقُق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والمعجب لا يحقُق قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمن حققَ قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرجَ عن الرِّيَاءِ ومن حققَ قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرجَ عن الإعجابِ وفي الحديثِ المعروفِ: «ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مَطَاعٌ وَهَوى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ المرءِ بِنَفْسِهِ»[(٣)].

قالَ الفقيهُ: من أرادَ أن يكسرَ العجبَ فعَلَيْهِ بأربعةِ أشياءَ:

أولُها: أنْ يَرى التوفيقَ من الله، فإذا رأى التوفيق من الله تَعَالَى فإنَّه يشتغلُ بالشكرِ وَلا يعجبُ بنفسِه.

والثَّاني: أن ينظرَ إِلَى النعماءِ الَّتِي أنعمَ اللهُ بِها عَلَيْهِ فإذا نظرَ فِي نعمائه اشتغلَ بالشكرِ عليهَا واستقلَّ عملَه وَلاَ يعجبُ بِهِ.

والثالثُ: أن يخافُ ألا يتقبلَ منه، فإذا اشتغلَ بخوفِ القبولِ لا

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢٧٧-٢٧٨).

(٣) صحيح الجامع للألباني (٣٠٣٩)**********

يعجبُ بنفسِهِ.

والرابعُ: أن ينظرَ فِي ذنوبِه الَّتِي أذنَب قبل ذلك، فإذا خافَ أن ترجحَ سيئاتُه عَلَى حسناتِه فقد كَسَرَ عجبَه، وكيفَ يعجبُ المرءُ بعملِه وَلاَ يدري ماذا يخرجُ من كتابِه يومَ القيامةِ وإِنَّما يتبين عجبُه وسرورهُ بعد قراءة الكتابِ.

وعن مسروقٍ – رحمه الله تَعَالَى– قَالَ : كَفى بالمرءِ علمًا أن يخشى اللهَ وكفى بالمرء جهلاً أن يعجبَ بعملِه[1].

---

(١) انظر تنبيه الغافلين تحقيق الشيخ سيد العربي (ص: ٣٨١).

الْمَرَضُ السابعَ عشرَ: الكبرُ

الكبرُ مرضٌ يضرُّ الإنسانَ فِي الدُّنْيَا والآخرةِ أما فِي الدُّنْيَا فيكسبهُ مقت النَّاسِ وأما فِي الآخرةِ فيكسبه الإثمَ والكبرُ من صفات اليهودِ كَمَا أخبرَ عنهم سُبْحَانَهُ وتَعَالَى فِي كتابه العزيزِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ۝٨٧﴾ [البقرة: ٨٧].

اعلم أنَّ المتكبرَ يعاقبُ فِي الدُّنْيَا عقوبةً من أشدَّ العقوبات ألا وهي الطبعُ عَلَى قلبِه فلا يستطيعُ أن يفرقَ بَيْنَ الحقَّ والباطِل وَلاَ بَيْنَ الطاعةِ والمعصيةِ قَالَ سُبْحَانُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥].

وَقَالَ تَبارِكَ وتَعالَى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

والمعنى: سأمنع فهمَ الحججِ والأدلةِ الدالةَ عَلَى عظمتِي وشريعتِي وأحكامِي قلوبَ المتكبرين عن طاعتِي ويتكبرون عَلَى النَّاس بغيرِ حقٍّ أي: كَمَا استكبروا بغيرِ حقٍّ أذلهَّم اللهُ بالجهلِ .... قَالَ سفيانُ بن ييعنةَ فِي قوله: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قَالَ: أنزعُ عنهم فهمَ القُرْآنِ وأصرفُهُم عن آياتي.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ﴾ أي: وإنْ ظهرَ لهم (سبيلَ الرُّشْدِ) أي: طريقَ النجاةِ لا يسلكوها وإن ظهرَ لهم طريقُ الهلاكِ

والضلالِ (يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [١].

وقد وردت أحاديثُ عديدةٌ تدلُّ عَلَى ذمَّ الكبرِ وسوءِ منقلبِ صاحبِه نذكرُ منها:

قوله ص: «يُحْشَرُ الْمُتكَبِّرونَ يَوْمَ الْقِيَامِةِ أَمْثَالَ الذَّرَّ فِي صُوَرِ الرَّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» [٢].

وَقَالَ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبرٍ» قَالَ رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ [٣] وَغَمْطُ النَّاسِ [٤]» [٥].

وفي رواية: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبرٍ» [٦].

قال الحافظُ ابن حجر [٧]:

إنَّ مَنْ قَصَدَ بِالْمَلْبُوسِ الْحَسَنِ إِظْهَار نِعْمَة اللهَّ عَلَيْهِ مُسْتَحضِرًا لَهَا شاكِرًا عَلَيْهَا غَيْر مُحتقِر لِمَنْ لَيْسَ لَهُ مِثْله لاَ يَضُرّهُ مَا لَبِسَ مِنْ المُبَاحَات، وَلَوْ كَانَ فِي غَايَة النَّفَاسَة، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّة مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبرٍ...» وساق

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٦٩) باختصار.
(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٤٩٢).
(٣) بطر الحق: فدعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا- مسلم شرح النووي (١/٣٦٧).
(٤) غمط الناس: احتقارهم- المصدر السابق.
(٥) أخرجه مسلم (٩١) وغيره.
(٦) أخرجه مسلم (١٤٩/٩١).
(٧) فتح الباري (١٠/٢٧١).

حديث الباب، ثُمَ قَالَ: قوله: «وغمط»: الاحتقار، وأما ما أخرجه الطبري من حديث علي: «إِنَّ الرجلَ يُعجِبه أَنْ يكونَ شِرَاكُ نَعْلِهِ أَجْودَ مِنْ شِرَاكِ صَاحِبِهِ» فيدخل فِي قوله تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] فَقَدْ جَمَعَ الطَّبَرِيُّ بَيْنه وَبَيْن حَدِيث ابن مَسْعُود بِأَنَّ حَدِيث عَلِيّ مَحْمُول عَلَى مَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ لِيَتَعَظَّم بِهِ عَلَى صَاحِبه، لاَ مَنْ أَحَبَّ ذَلِك ابْتِهَاجًا بِنِعمَةِ الله عَلَيْهِ، فَقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ مِنْ رِوَاية عَمْرو بْن شُعَيْب عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدّه رَفَعَهُ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَر نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» وَلَهُ شَاهِد عِنْد أَبِي يَعْلَي مِنْ حَدِيث أَبِي سَعِيد، وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابن حِبَّان وَالْحَاكِم مِنْ حَديث أَبِي الأَحْوَص عَوْف بْن مَالِك الْجُشَمِيّ عَنْ أَبِيهِ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لهُ وَرَآهُ رَثَّ الثِّيَاب: إِذَا أَتَاكَ الله مَالاً فَلْيَرَ أَثَرَهُ عَلَيْكَ» أيْ بِأَنْ يَلْبس ثِيابًا تَلِيق بِحَالِه مِنْ النَّفَاسَة وَالنَّظَافة لِيَعْرِفهُ الْمُحتَاجُونَ لِلطَّلَبِ مِنْهُ، مَعَ مُرَاعاة الْقَصْد وَتَرْك الإِسْرَاف جَمْعًا بَيْن الأَدِلَّة. انتهى كلامُ الحافظ.

ومن الكبرِ أن يحتقرَ المسلمُ أخاه المسلمَ بقولٍ أو فعلٍ أو نظرٍ فينظر لهَذَا عَلَى أَنَّهُ حقيرٌ وهَذَا فقيرٌ وهَذَا ضعيفُ العقلِ قليلُ العلمِ وهَذَا به كذا وذاك به كذا، وينسَى أن ما به من نعمةٍ سواء أكانت مالاً أم جمالاً أم جاهًا أم رياسةً ومكانةً في المجتمع ... أم غير ذَلِك من النعمِ فمن الله تَعَالَى فسُبْحَانَهُ الَّذِي أعطى وَهُوَ القادرُ عَلَى أخذها فِي لمحِ البصرِ كما فعلَ بقارون، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ

وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

قالَ السعديُّ[١]:

فلما انتهت بقارونَ حالةُ البغي والفخر وازيَّنت الدُّنْيَا عِنْدَهُ وكثرَ بها إعجابُه، بَغتَهُ العذابُ (فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ) جزاءً من جنسِ عملِه فكلما رفعَ نفسَهُ عَلَى عبادِ اللهِ أنزلَه اللهُ أسفلَ سافلين هو وما اغتر به من دارِه وأثاثِه ومتاعِه.

الكبرُ يُنافي حقيقةَ العبودية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧].

فالكبرياءُ من خصائصِ الربوبيةَ فمن تخلقَ بهَذَا الخلقِ فكأنَّه ينازعُ الله في صفاتِه وَهُوَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وهَذَا بلا شكٍّ ينافي حقيقةَ العبوديةِ قَالَ ﷺ في الحديثِ القدسي: «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُني عَذَّبْتُهُ»[٢].

الكبرُ من أخلاقِ الكفار والتواضعُ من أخلاقِ الأنبياءِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٠).

[الصافات: ٣٥] وَقَال سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] ومثل هَذَا في القُرْآن كثير.

وهو سُبْحَانَهُ لا يحبُّ الكبرَ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقد مدحَ عبادَه المؤمنينَ بالتواضعِ فقالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] يعني متواضِعين ومدحَهم بتواضُعِهم وأمر نبيَّهُ ﷺ بالتواضعِ فقالَ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] ومدَح النَّبِيَّ ﷺ بخلقِه فقالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وكانَ خلقُه التواضعَ لأنَّه رُوي أَنَّهُ كَانَ يركبُ الحمارَ ويجيبُ دعوةَ المملوكِ، فثبتَ أنَّ التواضعَ من أحسنِ الأخلاقِ وكانَ الصالحونَ من قَبلُ أخلاقُهم التواضعُ فوجب علينا أن نقتدي بهم.

ذُكرَ عن عمرَ بن عبد العزيز- رحمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّهُ أتَاه ذاتَ ليلةٍ ضيفٌ فلما صلَّى العشاءَ كَانَ يكتبُ شيئًا والضيفُ عِنْدَهُ كادَ السراجُ أن ينطفئ فقال الضيفُ : يا أميرَ المؤمنين أقوم إِلَى المصباحِ فأصلحه؟ قَالَ: ليسَ من مروءةِ الرجلِ أن يستعملَ ضيفَه قَالَ: أفأُنَبِّهَ الغلامَ؟ قَالَ: لا، هي أولُ نومةٍ نامَها فقامَ عمرُ وأخذ البطة فملأ المصباحَ فقال الضيفُ قمت بنفسِك يا أميرَ المؤمنين؟ قَالَ: ذهبتُ وأنا عمر ورجعت

عمرُ ورجعتُ وأنا عمرُ وخيرُ النَّاسِ عندَ الله من كَانَ متواضعًا[١] والآثارُ عن التواضع وذمَّ الكبرِ كثيرةٌ جدًّا لا تُحصى وليسَ المقامَ يتسعُ لسردِها فينبغي لكلَ ذي عقلٍ أن يجاهدَ نفسَه عَلَى تركِ الكبرِ والتخلقِ بخلقِ التواضعِ ففي التواضعِ العزةُ والرفعةُ فِي الدُّنْيَا والآخرةِ، والكبرُ بالعكس.

قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زادَ اللهُ عَبْدًا بِعفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَواضَعَ أَحَدٌ لله إِلاَّ رَفَعُهُ الله»[٢].

الترهيبُ من التكبرِ بعلومِ الآخرةِ:

أشرُّ الكبرِ من يتكبرُ عَلَى العبادِ لعلمِه ويتعاظُم فِي نفسِه بفضيلتِه فإنَّ هَذَا لم ينفعه علمُه، فإنَّ مَن طلبَ العلمَ للآخرة كسرَه علمُه وخشعَ قلبُه واستكانت نفسُه وكان عَلَى نفسِه بالمرصاد فلا يفترُ عنها بل يحاسبها كل وقت ويفتدها.

فإنْ غفلَ عنها جَمحَت عن الطريقِ المستقيمِ وأهلكتُه ومَن طلبَ العلمَ للفخرِ والرياسةِ وبطرَ عَلَى المسلمين[٣] وتحامقَ عليهم وازدراهُم فهَذَا من أكبرِ الكبرِ وَلاَ يدخلُ الجنةَ من كَانَ فِي قلبهِ مثقالُ ذرةٍ من كبرٍ وَلا حولَ وَلاَ قوةَ إلا باللهِ العليَّ العظيم[٤].

---

(١) تنبيه الغافلين (١٤١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) تكبر عَلَى المسلمين.

(٤) الكبائر للإمام الذهبي (١٠٥).

الْمَرَضُ الثامنَ عشرَ: غفلةُ القلبِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

قالَ ابنُ جرير الطبريّ [(١)]:

يقول تَعَالَى ذكره: دنا حسابُ النَّاسِ عَلَى أعمالهم الَّتِي عملوهَا فِي دنياهم ونعمِهم الَّتِي أنعمَها عليهم فيها فِي أبدانِهم وأجسامِهم ومطاعمِهم ومشارِبِهم، وملابسِهم وغير ذَلِكَ من نعمهِ عندهم ومسألته إياهم ماذا عملوا فِيها، وهل أطاعوه فيها فانتهوا إِلَى أمره ونهيِهِ فِي جميعها أم عصوه فخالفُوا أمرَه فيها؟ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يقولُ: وهم فِي الدُّنْيَا عما اللهُ فاعلٌ بِهِم من ذَلِك يوم القيامةِ وعن دونِ محاسبتِهِ إياهم منهم واقترابه لهم فِي سهوٍ وغفلةٍ وقد أعرضُوا عن ذلكَ فتركوا الفكرَ فيه والاستعدادَ له والتأهبَ جَهلاً منهم بما هم لا قُوة عند ذَلِكَ من عظيمِ البلاءِ وشديدِ الأهوالِ.

وعن النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قَالَ: «**فِي الدُّنْيَا**»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (١٠/٣).

(٢) قال الشيخ/ أبو إسحاق- حفظه الله: أخرجه الطبري (١٨٤٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولكن أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٨، ١١٢٦٩) التفسير من حديث أبي سعيد بنفس إسناد الطبري فلا أدري ممن الخطأ. والصواب أنه من حديث أبي سعيد وأصله في الصحيحين في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩] وقال ص: ﴿أَهْلُ الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ﴾ أخرجه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) والنسائي في الكبرى (١١٢٥٤) واللفظ له والترمذي (٣٥١٦) وغيرهم.

وللغافل صفات كثيرة: ذكرها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، وهي صفات البشر عامة وتظهر أكثر عند أهل الغفلة، ونذكر منها:

١- يحب الشهوات:

قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

يخبر تعالى أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا، وغيرها تبع لها، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم جعلوه هو المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله وصحبوها صحبة البهائم السائمة يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها ولا يبالون على أي وجه حصلوها ولا فيما أتفقوا وصرفوها، فهؤلاء كانت زاداً لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته فجعلوها وسيلة لهم وطريقاً يتزودن منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم وعلموا أنها كما، قال الله فيها ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فجعلُوها مبعرًا

إِلَى الدارِ الآخرةِ ومتَجرًا يرجون بها الفوائدَ الفاخرةَ فهؤلاء صارت لهم زادًا إِلَى ربِّهم(١).

٢- يلهيه التكاثرُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝﴾ [التكاثر: ١-٨].

٣- باغ طاغ لو منَّ الله عليه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦، ٧].

وَقَال سُبْحَانَهُ ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص: ٢٤].

٤- يحبُّ العاجلةَ ويذرُ الآخرةَ:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٢٤).

٥- فَرِحٌ فخورٌ إذا ذاقَ النعمةَ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ [هود: ١٠، ١١].

وهذه طبيعةُ الإنسانِ من حيثُ هو إنسانٌ ويبرز هَذَا الخلق عند أهل الغفلة إلاَّ من وفَّقَه اللهُ تَعَالَى وأخرجه من الغفلةِ إِلَى اليقظةِ وهم الذين ذكرَهُم سُبْحَانَهُ فِي الآيةِ هم الذين صبروا فِي السراءِ والضراءِ وقاموا بحقوقِ الله تَعَالَى عَلَى كلِّ حالٍ.

٦- ظالمٌ لنفسِهِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾ [يونس: ٤٤] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [الكهف: ٣٥].

وأعظمُ أنواعِ الظلمِ الشِّرْكِ بالله تَعَالَى هو غفلةُ الإنسانِ عمَّا خُلِقَ من أجلِه وعمَّا هو مُقْدِمٌ عَلَيْهِ فِي يومٍ كَانَ مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ.

٧- يتبعُ الشَّيْطَانَ:

أهلُ الغفلةِ يتبعونَ خطوات الشَّيْطَانِ ويقعون فِي مصائده أسرع من غيرِهم وذَلِكَ لغفلتِهم عن تحذيرِ الله تَعَالَى من الشَّيْطَانِ وطرقِه فِي إغواءِ بني آدمَ وشدةِ عداوتِه لهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾[سبأ: ٢٠، ٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠] والآياتُ كثيرةٌ جدًّا فِي بيانِ عداوةِ وخطرِ الشَّيْطَانِ عَلَى الإنسانِ.

٨- الغافلُ هلوعٌ جزوعٌ منوعٌ:

قَالَ تعَالَى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

يقولُ تَعَالَى مخبرًا عن الإنسانِ وما هو مجبولٌ عَلَيْهِ من الأخلاقِ الدنيئة (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا) ثُمَّ فسره بقولِه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أي: إذا أصابَه الضرُّ فزِعَ وجزعَ وانخلعَ قلبُه من شدةِ الرعبِ وأيسَ أن يحصلَ له بعد ذَلِكَ خيرٌ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أي: حصلت لَه نعمةٌ من الله تَعَالَى بَخِلَ بها عَلَى غيرِه ومنعَ حقَّ الله تَعَالَى فيها... ثُمَّ قَالَ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ أي: الإنسان من حيثُ هو متصفٌ بصفاتِ الذمَّ إلا من عصمَه الله ووفَّقَه وهداه إِلَى الخيرِ ويسَّرَ له أسبابَه وهم المصلون... [(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥١٨).

الْمَرَضُ التاسعَ عشرَ
الغدرُ وعدمُ الوفاء بالعهدِ

الغادرُ: هو الَّذِي يواعدُ عَلَى أمرٍ وَلاَ يَفي بِهِ[١].

والغدرُ من صفات المنافقين قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَت فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النَّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا...** » وذكر منها وَإِذَا عَاهَدَ غَدَر... [٢].

وعن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**قَالَ اللهُ: ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»[٣].

قال ابنُ التينِ: هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خصم لجميع الظالمين إلا أَنَّهُ أرادَ التشديدَ عَلَى هؤلاء بالتصريح[٤].

قَالَ الحافظُ: قولُه (أَعطَي بِي ثُمَّ غدر) كذا للجميع عَلَى حذف المفعولِ والتقديرِ أَعطَى بيمينه بِي أي عاهدَ عهدًا وحلفَ عَلَيْهِ بالله ثُمَّ نقضهُ[٥].

---

(١) شرح مسلم (٢٨٧/٦).
(٢) متفق عليه: تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري (٢٢٢٧).
(٤) فتح الباري (٤٨٨/٤).
(٥) المصدر السابق.

وعَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ [(١)] يَوْمَ القِيَامَة يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلانِ بْنِ فُلاَنٍ»[(٢)].

ذمُّ عدمِ الوفاءِ بالعهدِ:

مكمنُ الخطرِ فِي هَذَا المَرض أَنَّهُ يورثُ النفاقَ فِي القلبِ إن لم يتب صاحبُه ويرجع عن عدم الوفاء بالعهدِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦].

قالَ الطبريُّ[(٣)]:

ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لكَ يا محمدُ صفتَهم (مَّنْ عَـٰهَدَ اللهَ بقوله: أَعطَى اللهَ عهدًا (لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ) يقول: لئن أعطانًا اللهُ من فضلِه ورزقَنَا مَالاً ووسَّعَ علينا من عِنْدَهُ (لَنَصَّدَّقَنَّ)...

إِلَى أن قَالَ قوله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم﴾ اللهُ ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ بفضلِ الله الذِي آتاهُم فلم يَصَّدَّقُوا منه ولم يصلوا منه قرابةً ولم ينفقوا منه فِي حقِّ الله، ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ يقول: وأدبروا عن عهدِهم الذِي عاهدُوه اللهَ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فأعقبَهُم اللهُ نفاقًا فِي قلوبِهم ببخلِهم بحقِّ اللهِ الَّذِي فُرِضَ عليهم فيما آتاهُم من فضلِه وإخلافِهم الوعدَ الَّذِي وعَدُوا اللهَ ونقضِهم

---

(١) لكل غادر لواء: أي علامة يشهر بها في الناس- شرح مسلم (٦/ ٢٨٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٨) ومسلم (١٧٣٥).
(٣) جامع البيان (٦/ ٢٤٠).

عهدَه فِي قلوبِهم.

تنبيهٌ:

كثيرٌ من النَّاس يظنونَ أنَّ هَذِهِ الآيَةَ نزلت فِي ثعلبةَ بن حاطبٍ وهَذَا غيرُ صحيح؛ لأنَّ ثعلبةَ من الصحابةِ الذين شهدُوا بدرًا مع رسُولِ الله ﷺ، ومن المعلومُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ شهدَ لأهل بدرٍ بالجنةِ وعدم دخولِ النارِ عن جابر رضي الله عنه قَالَ: إن عبدًا لحاطبِ بن أبي بلتعة جاءَ يَشكُو حاطبًا، فقالَ: يا رسولَ الله: ليدخُلنَّ حاطبٌ النارَ، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَذَبْتَ لاَ يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالحُدَيْبِيَةَ**»[1].

قال العلامةُ القرطبيُّ[2]:

وثعلبةُ بدريٌّ أنصاريٌّ وممن شهدَ اللهُ لَهُ ورسولُه بالإيمانِ حسب ما يَأتي بيانُه فِي أول الممتحنة، فما رُوي عَنْهُ غيرَ صحيح.

أثنى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الموفين بعهدِهم لأنَّهُ سُبْحَانَهُ أمرَهم فأطاعُوه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٩٤).

قَالَ الحسنُ: يعني بذَلَكَ عقودَ الدينِ وهي: ما عقدَهُ المرءُ عَلَى نفسِه من بيعٍ وشراءٍ وإجارةٍ وكراءٍ ومناكحةٍ وطلاقٍ ومزارعةٍ ومصالحةٍ وتمليكٍ وتخييرٍ وعتقٍ وتدبيرٍ وغير ذَلكَ من الأمورِ، ما كَانَ ذَلِكَ غير خارجٍ عن الشريعةِ وكذَلِكَ ما عقدَهُ عَلَى نفسهِ لله من الطاعات، كالحجَّ والصيام والاعتكافِ والقيامِ والنذرِ وما أشبهَ ذَلِك من طاعات مِلةِ الإسلامِ[1].

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣٥).

الْمَرَضُ العشرون
الشماتة والتربصُ بالدوائر

الشماتةُ: الفرحُ بِبَلِيَّةٍ تنزلُ بِمَن تُعاديه[١].

وسببُ الشماتةِ هو أذيةٌ تحدثُ من الغيرِ توجبُ غيظَ القلبِ فَيَمتَلِئ بالغلِّ والشحناءِ، وَلاَ يزالُ متربصًا بالخصم فإذا نزلَ به بليةٌ فَرِحَ الشامتُ وذهبَ غَيظُ قلبِهِ لانتصارِه عَلَى عدوِّهِ ثُمَّ تَراه بعد ذَلِك يقولُ: اللهمَّ لا شماتةَ... كيف؟؟

ففرحُكَ بمصائبِ الغيرِ- وإن كَانَ ممن ألحقَ بِكَ الضررَ- أصلُ الشماتةِ وكثيرًا ما يحدثُ هَذَا بَيْن المسلمين، ولو علمَ المسلمُ أنَّ الشماتةَ والتربصَ بالدوائر من خُلِقِ الكفارِ والمنافقينَ ما فعلَ ذَلِكَ ولجاهدَ نفسَهُ عَلَى تركِ هَذِهِ الصفةِ المذمومةِ قالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: قل يا محمدُ للمنافقين: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

أما المسلمُ الكيسُ الفطنُ فهو الَّذِي يتاجرُ مع الله تجارةً لن تبورَ ويبحثُ عن كلِّ عملٍ يثقلُ ميزانَه يومَ القيامةِ ومن هَذَا كظمُ الغيظِ وجهادُ النفسِ عَلَى أن ترقى إِلَى مرتبةِ العفوِ عن كلِّ من أساءَ إليها بقولٍ أو فعلٍ قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ

---

(١) لسان العرب (٥/ ١٨٠).

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] ويحتسبُ ذلِكَ عند الله، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وَقَالَ ص: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلاَّ عِزًّا»(١).

وفي الصفح والعفوِ والحلمِ من الحلاوةِ والطمأنينةِ والسكينةِ وشرفِ النفسِ وعزَّهَا ورفعتِها عن تَشَفِّيهَا بالانتقام، ما ليس فِي المقابلةِ والانتقام.

فإنَّ القلبَ إذا اشتغلَ بشيءٍ فاتَه ما هو أهمُّ عِنْدَهُ وخيرٌ لَه منه، فيكونُ بذَلِكَ مغبونًا، والرشيدُ لا يرضى بذَلِكَ ويرى أَنَّهُ من تصرفات السفيه، فأين سلامةُ القلبِ من امتلائِه بالغلِّ والوساوس وإعمالِ الفكرِ فِي إدراكِ الانتقامِ(٢)؟!! ثُمَّ بعد الانتقام يشمَتُ ثُمَّ ماذا؟؟؟ لا شيءَ ولو غفرَ وعفا كَانَ خيرًا لَه فِي الدُّنْيَا والآخرة، وذَلِك لأنَّ الغلَّ والحقدَ يعكران صفاءَ القلبِ ويوجبان العداوةَ مع الغيرِ فضلاً عن فواتِه منزلةَ المحسنين بسببِ الشماتةِ وتركِ العفوِ عن أخيهِ المسلمِ.

---

(١) صحيح تقدم تخريجه- باب مرض الكبر.

(٢) ما بين النجمتين من مدارج السالكين لابن القيم (٣١٨/٢) نقلا عن صلاح الأمة للسيد العفاني (٢٥٤/٥) وما بعدها باختصار وتصرف.

الْمَرَضُ الحادي والعشرون: الهَوى

الهوىَ: مصدرُ هَوي يَهْوِي هَوىً، ونفس المهوي يسمى هوى ما يَهوى، فاتباعُه كاتباعِ السبيلِ كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: ٧٧] فاتباعُ الهوى يُرادُ به نفسُ مسمى المصدرِ، أي اتباعُ إرادتِه ومحبتِه الَّتِي هي هواه، واتباعُ الإرادةِ: هو فعلُ ما تَهواه النفسُ كقوله تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] (١).

قالَ ابنُ الجوزي(٢):

تأملتُ وقوعَ المعاصي من العصاةِ فوجدتهم لا يقصدون العصيانَ، وإنَّما يقصدون موافقةَ هواهم، فوقعَ العصيانُ تبعًا اهـ.

فينبغي للعاقلِ أن يتأملَ العواقبَ وما آلَ إليه أهلُ الأهواءِ من الوقوعِ فِي الضلالِ.

قَالَ تعَالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: ٢٦] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (١٠/٥٨٥) باختصار.
(٢) صيد الخاطر (ص: ١٩٧).

قال العلامةُ ابنُ القيمِ[1]:

وأنتَ تجدُ تحتَ هَذَا الخطابِ أن اللهَ لا يهدي من اتبعَ هواهُ وجعلُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– المتبعَ قسمين لا ثالثَ لهما: إما ما جاء به الرسولُ ﷺ وإما الهوى، فمن اتبعَ أحدَهما لا يمكنه اتباع الآخر والشَّيْطَان يطيفُ بالعبدِ من أين يدخل عَلَيْهِ فلا يجدُ عَلَيْه مدخلاً وَلا إليه طريقًا إلا من هواه فلذَلِكَ كَانَ الَّذِي يخالفُ هواه يفرق الشَّيْطَان من ظلَّه، وإنَّما تطاقُ مخالفةُ الهوى بالرغبةِ فِي الله وثوابِه والخشيةِ من حجابِه وعذابه، ووجد حلاوة الشفاءِ فِي مخالفةِ الهوى، فإنَّ متابعتَه الداءُ الأكبرُ، ومخالفتَه الشفاءُ الأعظمُ.

وقِيلَ لأبِي القاسمِ الجنيد: متى تَنَالُ النفوسُ مُنَاهَا؟ فقال: إذا صارَ داؤُها دواءَهَا، فقِيْلَ له: ومتى يصير داؤُهَا دواءَها؟ فقال: إذا خالفت هواهَا، ومعنى قولِه: يصيرُ داؤُها دواءَهَا: أن داءَها هو الهوى فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته.

وقِيْلَ: إنَّمَا سمِّي هوى لأَنَّهُ يهوي بصاحبِه إِلَى أسفلِ السافلين، والهوى ثلاثةُ أرباعٍ: الهوانُ وَهُوَ شارع النارِ الأكبر كَما أن مخالفتَه شارعُ الجنةِ الأعظم. انتهى.

فتجدُ صاحبَ الهوى إمّا أنْ يكونَ عابدًا مبتدعًا وإما أن يكونَ عاصيًا متبعًا لشهوتِه، فهو يعلمُ من نفسِه أَنَّهُ صاحبُ بدعةٍ أو أَنَّهُ صاحبُ معصيةٍ ومع ذَلِكَ تراه يتركُ النصوصَ المحكمةَ من الكتابِ والسنةِ ويتتبعُ زلاتِ

---

(١) روضة المحبين (ص: ٣٤٠).

العلماءِ وقد قَالَ أحدُ السَّلفِ الصالحِ من تتبعَ زلاتِ العلماءِ فقد تزندقَ[١] أو يبحثُ عمن يرخصُ له فِي معصيتِه أو في بدعتِه وَهُوَ يعلمُ أن من ذهب إليهِ ليس من العلماءِ الربانيين المتبعين للكتابِ والسنةِ فلا يزالُ يبحثُ عن شيخٍ يرخصُ له أكلَ الرِّبَا أو أخذَ الرشوةِ أو التوسلِ بالأولياءِ وإلى غيرِ ذَلِكَ من الأشياءِ المحرمةِ تحريمًا بيِّنًا، وكذَلِكَ تذهبُ الأخت إِلَى الشيخِ الذي يرخص لها النمص وترك الحجاب الشرعي الذي جاء صفته فِي القُرْآنِ والسنةِ ويرخصُ لها من ملابسٍ لا صلةَ لها بالزيِّ الشَّرْعيِّ أو يرخصُ لها السفرَ بغير محرمٍ والأمثلةُ كثيرةٌ جدًّا لكن قس ما ذكرت عَلَى ما لم أذكر ، فصاحبُ الهوى عبدَ هَوَاهُ فأضلَّه اللهُ تَعَالَى عَلَى علمٍ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: **٢٣**].

وقد قِيْلَ الهوى: كمن لا يؤمن، قَالَ الشعبيُّ: وسمي هوى لأنّه يهوي بصاحبِه ومطلقه يدعو إِلَى اللذةِ الحاضرةِ من غير فكرٍ فِي العاقبةِ، ويحثُّ عَلَى نيلِ الشهوات عَاجلاً وآجلاً وإن كانت سَببًا لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً فللدنيا عاقبةٌ قبلَ عاقبةِ الآخرةِ، والهوى يعمي صَاحِبَه من ملاحظتها والمروءةُ والدينُ والعقلُ يَنهي عن لذةٍ تعقبُ ألمًا وشهوةٍ تورثُ ندمًا فكلٌّ منها يقولُ للنفسِ إذا أرادت ذلك: لا تَفعلي والطاعةُ لمن غلبَ أَلا ترى أن الطفلَ يؤثرُ ما يهوي وإن أدَّاه إِلَى التلفِ لضعفِ ناهي العقلِ عنده، ومن لا دينَ له يؤثر ما يهواه وإن أدّاه إِلَى هلاكِه في الآخرةِ لضعف

---

(١) الزنديق: هو المنافق نفاقًا عقديًا.

ناهي الدين، ومن لا مروءةَ له يؤثر ما يهواه وإن ثَلَم مروءته أو عدمها لضعف نهي المروءة فأين هَذَا من قولِ الشافعيَّ- رحمَه الله- لو علمت أن الماءَ الباردَ يثلم مروءَتي لما شربته.. إِلَى أن قَالَ: ولو زالَ عَنْهُ رين الهوى لعلمَ أَنَّهُ قد شَقِي من حيثُ قدَّرَ السعادةَ واغتمَّ من حيثُ ظنَّ الفرحَ- وألم من حيثُ أرادَ اللذةَ فهو كالطائر المخدوعِ بحبةِ القمحِ لا هو نالَ الحبةَ وَلاَ هو تخلصَ مما وقعَ فيه[1].

علاجُ الهوى:

وقد أورد العلامةُ ابنُ القيِّم خمسينَ سببًا لعلاجِ الهوى- نذكرُ هنا بعضًا مِنها باختصارٍ:

- عزيمةُ حرًّ يغارُ لنفسِه وعَليها.
- جرعةُ صبرٍ يصبرُ نفسَه عَلَى مرارتِها تلكَ الساعةِ.
- ملاحظتُه الألمِ الزائدَ[2] عَلَى لذةِ طاعةِ هواه.
- إبقاؤُه عَلَى منزلتِه عندَ الله – تَعَالَى- وفي قلوبِ عبادِه وَهُوَ خيرٌ

(١) روضة المحبين لابن القيم (٣٩١) وما بعدها.

(٢) مَنْ مِنَّا يطيق عذاب الله، من منا يتحمل ظلمة القبر وعذاب القبر من يتحمل النار وعذاب النار بل غمسة واحدة في النار تُنسي أسعد أهل الأرض كل ما رآه من نعيم الدُّنيَا- قالَ رسول الله ﷺ: «يؤتي بأنعم الناس كان في الدُّنْيَا من أهل النار، فيقول: أصبغوه فيها صبغة فيقول: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط قرة عين قط، فيقول: لا وعزتك ما رأيت خيرًا قط ولا قرة عين قط- جزء من حديث أنس أخرجه الإمام مسلم (٢٨٠٧) وأحمد في مسنده (٣/٢٥٣) واللفظ لأحمد.

وأنفعُ لهُ من لذةِ موافقةِ الهوى.

* فرحُهُ بغلبةِ عدوِّهِ وقهرِهِ لَهُ ورده خاسئًا بغيظِه وغمَّه وهمَّه، حيثُ لم ينل منهُ أمنيةً واللهُ تَعَالَى يحبُّ من عبدِه أن يراغمَ عدوَّهُ ويغيظَه، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كتابِه العزيز: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وَقَالَ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] وَقَال تَعَالَى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ [النساء: ١٠٠] أي مكانًا يراغمُ فيه أعداء الله، وعلامةُ المحبةِ الصادقةِ مغايظةٌ أعداءِ المحبوبِ ومراغمتهم.

* ألا يختارَ لنفسِه أن يكونَ الحيوانُ البهيمُ أحسنَ حالاً منه، فإن الحيوانَ يميزُ بطبعه بَيْنَ مواقعَ ما يضرُّه وينفعَه لو عرف ذلك وآثرَ ما يضرُّه كَانَ حالَ الحيوانِ البهيم أحسنَ مِنه.

* أن يسيرَ بقلبه فِي عواقبِ الهوى فيتأملَ كم أفاتت معصيتُه من فضيلةٍ وكم أوقعت فِي رذيلةٍ وكم أكلةٍ منعت أكلات وكم من لذةٍ فوتت لذات وكم من شهوةٍ كسرت جاهًا ونكست رأسًا وقبحت ذكرًا وأورثت ذمًّا وأعقبت ذلاً وألزمت عارًا لا يغسله الماءُ غير أن عينَ صاحب الهوى عمياءُ.

* أن يتصورَ العاقلُ انقضاءَ غرضِه ممن يهواه، ثُمَّ يتصورُ حالَه بعد قضاءِ الوطرِ وما فاتَه وما حصلَ لَهُ.

* أن يأنفَ لنفسِه من ذلِّ طاعةِ الهوى، فإنَّه ما أطاعَ أحدٌ هواه

قط إلا وجدَ فِي نفسِه ذلاً وَلاَ يغترُّ بصولةِ أتباعِ الهوى وكبرِهم فهم أذلُّ النَّاسِ بواطنَ قد جمعوا بَيْنَ خصلتين الكبرِ والذلِّ.

* أن يوازنَ بَيْنَ سلامةِ الدينِ والعرضِ والمالِ والجاهِ ونيلِ اللذةِ المطلوبةِ فإنَّه لا يجدُ بينهما نسبةً ألبتة، فليعلمَ أنَّهُ من أسفهِ النَّاسِ ببيعه هَذَا بِهَذا.

* أن يعلمَ أنَّ الهوى ما خالطَ شيئًا إلا أفسدَهُ، فإن وقعَ في العلم أخرجه إِلَى البدعةِ والضلالة وصارَ صاحبُّه من جملةِ أهلِ الأهواءِ وإن وقعَ فِي الزهدِ أخرجَ صاحبَه إِلَى الرِّيَاءِ ومخالفةِ السنةِ، وإن وقعَ في الحكم أخرجَ صاحبَه إِلَى الظلمِ وصدَّه عن الحقَّ وإن وقعَ في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقعَ في الولايةِ والعزلِ أخرج صاحبَه إِلَى خيانةِ الله والمسلمين حيث يولِّي بهواه ويعزلُ بهواه، وإن وقعَ فِي العبادةِ خرجت عن أن تكونَ طاعةً وقربةً فما قارنَ شيئًا إلا أفسدَهُ.

* أن يعلمَ أن الشَّيْطَانَ ليس لَه مدخلٌ عَلى ابن آدمَ إلا من بابِ هواهُ فإنه يطيفُ به من أين يدخلُ عَلَيْهِ حَتَّى يفسدَ عَلَيْهِ قلبَه وأعمالَه فلا يجدُ مدخلاً إلا من بابِ الهوى، فيسري معه سريانَ السمَّ في الأعضاءِ.

* أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شبَّه أتباعَ الهوى بأخس الحيوانات صورةً ومعنى فشبَّهَهُم بالكلبِ تارةً كقوله تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وبالحمرِ تارةً- كقوله تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١] وقلب صورة إِلَى صورِ القردةِ والخنازيرِ تارةً.

* إنَّك إذا تأملتَ السبعةَ الذين يظلُّهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظلَّ عرشِه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه، وجدْتَهُم إِنَّمَا نَالوا ذَلِكَ الظلَّ بمخالفةِ الهوى، فإنَّ الإمامَ المسلطَ القادرَ لا يتمكن من العدلِ إلا بمخالفةِ هواه، والشابُ المؤثرُ لعبادة الله عَلَى داعي شبابِه لولا مخالفةُ هواه لم يقدر عَلَى ذلك، والرجلُ الَّذي قلبُه معلقٌ بالمساجدِ إِنَّمَا حملَهُ عَلَى ذَلِكَ مخالفةُ الهوى الداعي له إِلَى أماكن اللذات، والمتصدقُ المخفي لصدقَتِه عن شمالِه لولا قهرُهُ لهواه لم يقدر عَلَى ذلك، والَّذي دعَتهُ المرأةُ الجميلةُ الشريفةُ فخافَ الله- عَزَّ وَجَلَّ- وخالفَ هواه، والَّذي ذكرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خاليًا ففاضت عيناهُ من خشيتِه إِنَّمَا أوصلَهُ إِلَى ذَلِك مخالفةُ هواه، فلم يكن لحرَّ الموقف وعرقِه وشدتِه سبيلٌ عليهم يومَ القيامةِ، وأصحابُ الهوى قد بلغَ منهم الحرُّ والعرقُ كلَّ مبلغٍ وهم ينتظرون بعد ذلِكَ دخولَ سجنِ الهوى، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المسئولُ أن يعيذنا من أهواءِ نفوسِنا الأمارةِ بالسوءِ وأن يجعلَ هوانا تبعًا لما يحبُّهُ ويرضاه إنَّه عَلَى كل شيءٍ قديرٌ وبالإجابةِ جديرٌ[1].

الجهادُ الأكبرُ...جهادُ الهوى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

علق سُبْحَانَهُ الهدايةَ بالجهادِ ، فأكملُ النَّاسِ هدايةً أعظمُهم جهادًا.

(١) انظر روضة المحبين لابن القيم.

وأفرض الجهادِ جهادُ النفسِ وجهادُ الهوى وجهادُ الشَّيْطَان وجهادُ الدُّنْيَا فمن جاهد هَذِهِ الأربعةَ فِي الله هدَاه اللهُ سبلَ رضاه الموصلةَ إِلَى جنَّتِهِ ومن تركَ الجهادَ فإنَّه من الهوى بحسبِ ما عطلَ من الجهادِ.

قال الجنيد[١]: والذينَ جاهدُوا أهواءَهم فينًا بالتوبةِ لنهدينَّهُم سبلَ الإخلاصِ وَلاَ يتمكن من جهادِ عدوَّه في الظاهرِ إلا من جاهدَ هَذِهِ الأعداءَ باطنًا، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ عَلَى عدوَّهِ ومن نُصرتْ عَلَيْه نُصرَ عَلى عدوَّه ومن نُصرتْ عَلَيْهِ نُصرَ عَلَيْه عدوُّهُ[٢].

---

(١) توفي سنة (٢٩٨هـ) ترجمته في حلية الأولياء (١٠/٢٥٥) من أقواله ﴿علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه، لا يقتدي به- حاشية فواشد الفوائد (١٧٧)﴾.

(٢) المصدر السابق.

الْمَرَضُ الثاني والعشرون: غلظةُ القلبِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الفظُّ الغليظُ: المرادُ به ههنا غليظُ الكلامِ لقوله بعد ذَلِكَ: (غَلِيظَ الْقَلْبِ) أي: لو كنتَ سيِّئَ الكلامِ قاسي القلبِ عليهم لانفضُوا عنك وتركُوكَ ، ولكنَّ اللهَ جمعَهُم عليكَ وألانَ جانبكَ لهم تأليفًا لقلوبِهم، كَمَا قَالَ عبدُ الله بن عمرو: إني أرى صفةَ رسولِ الله ﷺ في الكتبِ المتقدمةِ أنَّه: ليسَ بفظٍ وَلاَ غليظٍ وَلاَ صخابٍ في الأسواقِ وَلاَ يجزي بالسيئةِ السيئةَ لكنْ يعفُو ويصفحُ [(١)][(٢)].

وغلظُ القلبِ عبارةٌ عن تجهّم الوجهِ وقلةِ الانفعالِ فِي الرغائبِ وقلة الإشفاقِ والرحمةِ ومن ذَلِك قولُ الشَّاعرِ:

يُبكَي عَلَيْنَا وَلا نَبْكِي عَلَى أَحِدٍ؟ لَنحنُ أغلظُ أكبادًا مِن الإبِلِ اهـ[(٣)]

عن عروةَ بن الزبير: أن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوجَ النبيَّ ﷺ قالت: دخلَ رهطٌ من اليهودِ عَلَى رسولِ الله ﷺ فقالُوا: السَّامُ [(٤)] عليكم، قالت:

---

(١) انظر البخاري (٢١٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٠٦).

(٣) تفسير القرطبي (٤/٢٦٠).

(٤) السأم: والذأم واللعنة: قَالَ ابن الأثير هكذا جاء في رواية مهموزًا- لسان العرب (٤/٤٥٧).

قالت: عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السامُ واللعنةُ، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ: «مَهْلاً يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه....» (١).

وفي رواية عبدِ الله بن أبي مليكة: «**مَهْلاً يَا عَائِشَةُ! عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ**»(٢).

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**»(٣).

وَقَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَالاَ يُعطي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»(٤).

عَلى العاقلِ- انطلاقًا من هَذِهِ النصوصِ وغيرها من النصوص الَّتِي تحثُّ عَلَى الرفقِ- أن يمرنَ نفسَه عَلَى تركِ العنفِ والشدةِ والغلظِة، فالكلمُ الطيبُ اللينِ يجذبُ النفوسَ الشاردةَ الناشزةَ فمثلاً إذا أردتَ أن تدعو أحدًا إِلَى دينِ الله وسلكتَ مسلكَ الرفقِ واللينِ في الخطابِ فإن ذَلِكَ يقربه منك ويجعلُه يصغي إليك وقد يتوبُ ويرجعُ إِلَى الحقَّ بسببِ كلمةٍ طيبة والواقعُ – فضلاً عن النصوص- يشهد بذلك قَالَ تَعَالَى لموسى وهارون حين أرسلهما إِلَى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

لكن ولا بدَّ للإنسانِ أن يتنبَّه وَلاَ يجعلُ الرفقَ يسوقُه إِلَى الضعفِ

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

والمهانةِ وتركِ الحزمِ فِي مواضعَ لا يصلحُ فيها إلا الحزمُ والقوةُ مثلاً إذا أخطأَ الولدُ وكررَ الخطأَ ولم يجد عقوبةً ولم يشعر بالحزمِ من الأبِ فِي مثل هَذِهِ المواقف، حتمًا سيدفعه ذَلِكَ إِلَى تكرارِ الخطأِ بل يدفعه إِلَى تعدي حدودِ الأدبِ مع الأبِ نفسه ومع غيره، فلا بد من أن يدورَ الأمرُ بَيْنَ الرفقِ والحزمِ- فلكلِّ مقامٍ ما يناسبُه فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرحمُ الراحمين ومع ذَلِك يقولُ فِي شأنِ الزَّاني والزانيةِ ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وَقَالَ ﷺ الَّذِي أرسلَهُ اللهُ رحمةً للعالمين: «**مُرُوا صِبيَانَكُمْ بِالصَّلاةِ إِذَا بَلَغُو سَبْعًا وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا**»[1] فتأمّل.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٦٦٨٩) وصحيح أبي داود (٤٩٥) وغيرهما.

الْمَرَضُ الثالثُ والعشرون
الحرصُ وطولُ الأملِ

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣] وقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إِلَى قوله تَعَالَى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩، ١٢٠].

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبَّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأمَلِ»(١).

وَقَالَ علي بن أبي طالب: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم اتِّبَاعُ الهَوَى وَطُولَ الأَمَلِ فَأَمَّا اتِّباعُ الهوَى فَيَصِدُّ عَنْ الحَقّ وَأَمَّا طُوْلُ الأملِ فَيُنسِي الآخِرَةَ»(٢).

قَال الحافظُ ابن حجر (٣):

وورد فِي ذمَّ الاسترسالِ مع الأملِ حديثُ أنسٍ رفعَهُ «**أَرْبَعَةٌ مِن الشَّقَاءِ: جُمُودُ العَيْنِ وقَسْوَةُ القَلْبِ وَطُولُ الأمَلِ وَالحِرصُ عَلَى الدُّنْيَا**» أخرجَه البزارُ وَعَن عبدِ الله بن عمرو رفعه «**صَلاحُ أَوَّلِ هَذِهِ الأمَّة بالزَهادةِ واليَقِينِ وَهَلاَكُ آخِرِهَا بِالبُخْلِ وَالأَمَل**» أخرجه الطبراني وابن أبي الدُّنْيَا(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٠) ومسلم (١٠٤٧).
(٢) أخرجه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٤٠).
(٣) فتح الباري (١١/ ٢٤٠، ٢٤١).
(٤) أرجو تخريج****************هـ

ويتولدُ من طولِ الأملِ الكسلُ عن الطاعةِ والتسويفُ بالتوبةِ والرغبةُ فِي الدُّنْيَا والنسيانُ للآخرةِ والقسوةِ في القلب؛ لأنَّ رقتَه وصفاءَه إِنَّمَا يقعُ بتذكرِ الموتِ والقبرِ والثوابِ والعقابِ وأهوالِ القيامةِ كَمَا قَالَ تَعالَى ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ وقِيْلَ: مَن قُصرَ أملُه قلَّ همُّهُ وتنوَّرَ قلبُه؛ لأَنَّه إذا استحضرَ الموتَ اجتهدَ فِي الطَّاعةِ وقلَّ همٌّ ورضِي بالقليلِ... وفي الأملِ سرٌّ لطيفٌ لأَنَّه لولا الأملُ ما تَهنى أحدٌ بعيشٍ وَلاَ طابَت نفسُه أن يشرعَ فِي عملٍ من أعمالِ الدُّنْيَا وإِنَّمَا المذمومُ منه الاسترسالُ فيه وعدمُ الاستعدادِ لأمرِ الآخرةِ فمن سلمَ من ذَلِكَ لم يكلف بإزالَتِه اهـ.

اعلم أنَّ الحرصَ والأملَ يجعلان الإنسانَ ينشغلُ عن مراقبةِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَينسى الآخرةَ ويتعلقُ قلبُه بالدُّنْيَا الزائلةِ، ومن كانت تلكَ حَالَتُه كَانَ أكبرُ همَّهِ ومبلغُ علمِه الدُّنْيَا والتكاثرَ بها، سواء أكان هَذَا التكاثرُ مالاً أم جَاهًا أم منصبًا أم أولادًا أم ما أشبه ذلك، ويغفلُ عن قولِ رسولِ الله ص: «اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَة»[1].

قال بعضُ الحكماء: أمهاتُ الخطايا ثلاثةُ أشياءَ: الحسدُ والحرصُ والكبرُ أمَّا الكبرُ فكان أصلُه من إبليسَ حين تكبَّرَ وأَبى أن يسجدَ فَلُعِنَ، وأمَّا الحرصُ فكان أصلُه من آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ- حيثُ قِيْلَ لَهُ: الجنةُ كلُّها مباحٌ لك إلا هَذِهِ الشجرة فحملَه الحرصُ [2] عَلَى أكلِها حَتَّى سقطَ منها

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٣) ومسلم (١٨٠٥).
(٢) حين قَالَ له الشيطان ولزوجه كَمَا أخبرنا سبحانه ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا

والحسدُ أصلُه من قابيلَ حين قتلَ أخاه هابيلَ[(١)(٢)].

قال الفقيهُ: من قصرَ أملُه أكرَمَهُ الله تَعَالَى بأربعِ كرامات:

إحداها: أن يقويه عَلَى طاعتِه؛ لأنَّ العبدَ إذا علمَ أَنَّهُ يموتُ عن قريبٍ لا يهتمُّ بما يستقبلَه من المكروهِ ويجتهدُ فِي الطاعات فيكثر عملُه.

الثانيةُ: يقلُّ همومُه لأنَّه إذا علمَ أَنَّهُ يموتُ عن قريبٍ لا يهتمُّ بما يستقبلَه من المكروهِ.

الثالثةُ: يجعلُه راضيًا بالقليلِ لأنَّه إذا علمَ أَنَّهُ يموتُ عن قريبٍ فإنَّه لا يطلبُ الكثرةَ وإنَّما يكونُ همُّه همَّ آخرتِه.

الرابعةُ: أن ينورَ قلبِه لأنّه يُقَال: نورُ القلبِ من أربعةِ أشياءَ:

أولُها: بطنُ جائعٍ، والثَّاني: صاحبُ صالحٍ والثَّالثُ: حفظُ الذنبِ القديمِ والرابعُ: قِصرُ الأملِ.

فإنَّ من طالَ أملُه عاقبَه اللهُ تَعَالَى بأربعةِ أشياءَ: **أولُها**: أن يتكاسلَ عن الطاعات، **والثاني**: أن تكثرَ همومُه فِي الدُّنْيَا، **والثالثُ**: أن يصيرَ حريصًا عَلَى جمعِ المالِ، **والرابعُ**: أن يقسو قلبُه... فينبغي للمسلم أن يقصرَ أملُه

مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١].

(١) جمهور المفسرين عَلَى أنهما قابيل وهابيل وعَلَى أن القاتل قابيل والمقتول هابيل مع أنه لم يرد بتسميتهما خبر عن رَسُولِ الله ﷺ، وقد قَالَ النبي ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلاَّ كَانَ عَلَى ابنِ آدمَ الأولِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ» البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧) تفسير سورة المائدة لشيخنا- حفظه الله (٢١١).

(٢) تنبيه الغافلين (١٦٨) بتحقيق سيد العربي.

فإنَّه لا يَدري فِي أيَّ نفسٍ يموتُ وفي أيَّ قدمٍ يموتُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَدۡرِى نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤] قَالَ بعضُ المفسرين: بأيَّ قدمٍ يموتُ.

وفي آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

فَينبغي للمسلمِ أن يكثرَ ذكرِ الموتِ فإنَّه لا غنيةَ للمؤمنِ من ستَّ خصالٍ:

أُولاها: علمٌ يدله عَلَى الآخرةِ.

والثانيةُ: رفيقٌ يعينُه عَلَى طاعةِ الله تَعَالَى ويمنعُه عن معصيتِه.

والثالثةُ: معرفةُ عدوَّهِ والحذرُ منه.

والرابعةُ: عبرةٌ يعتبرُ بها فِي آياتِ الله تَعَالَى، وفِي اختلافِ الليلِ والنهارِ.

والخامسةُ: إنصافُ الخلقِ كيلا يكونوا له يومَ القيامةِ خصماء.

والسادسةُ: الاستعدادُ للموتِ قبل نزولِه لكيلا يكون مفتضحًا يومَ القيامةِ[1].

---

(١) المصدر السابق.

الْمَرَضُ الرابعُ والعشرون: الطيرةُ

الطيرةُ: بكسرِ الطاءِ وفتحِ الياءِ، وقد تسكَّنُ: هي التشاؤمُ بالشيء، وَهُوَ مصدرُ تَطيرَ يُقَال: تطيرَ طيرةً وتخيرَ خيرةً[١].

الطيرةُ: مرضٌ قلبيٌ من أمراضِ الشبهاتِ أي الأمراض الَّتِي تتعلقُ بالمعتقدِ فالإنسانُ الَّذِي يعتقدُ أنَّ مع الله أيَّ شيءٍ- سواء أكان إنسانًا أم جمادًا أم حيوانًا- يستطيعُ أن يضرَّه أو ينفعَه فقد وقعَ فِي الشِّرْك فليسَ لبشر- مهما كانت مكانته- القدرةُ عَلَى جلبِ نفعٍ لأحدٍ أو دفعِ ضرًّ عن أحدٍ إلا من بعد أن يأذنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد أخبرنا تَعَالَى أَنَّهُ ما أصابَ الإنسان من مصيبةٍ فِي نفسِه أو ولدِه أو مالِه أو فِي أيَّ شيءٍ عزيزٍ عَلَيْهِ فإن ذَلِكَ عقوبةٌ لما اقترفَه من الذُّنُوبِ والمعاصِي، قَالَ سُبْحَانُه وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

إن العاقلَ من دانَ نفسَه عند نزولِ البلاءِ لأنَّه يعلمُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ ليسَ بظلامٍ للعبيدِ وما يصبه من مصائبَ ما هو إلا عقوبات للذنوب والمعاصي، فيدفعه ذَلِك إِلى التوبةِ والرجوعِ إِلَى الله، أما مريضُ القلبِ ضعيفُ البصيرةِ فيتَّهِمُ الآخرينَ ويتشاءَمُ منهم ويعتقدُ أنهم السببُ فِي كل ما أصابَه ومن كانت تلك حالتُه فقد تشبَّه بعقيدةِ آل فرعونَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ

---

(١) النهاية (٥٧٤).

يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قالَ القرطبيُّ[1]: قوله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ ﴾ أي الخصب والسعة ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أي أُعطيناهَا باستحقاقٍ، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ ﴾ أي: قحطٌ ومرضٌ وهي المسألةُ ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ ﴾ أي يتشاءموا به. . إِلَى أَنَّهُ قَالَ ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما قُدِّرَ لَهم وعَليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أن ما لحقَهم من القحطِ والشدائدِ إِنَّمَا هو من عندِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بذنوبِهم لا من عندِ موسى وقومِه. اهـ.

هَذَا وقد نَهى الإسلامُ عن التطيرِ والتشاؤمِ بمرئي كَانَ أو مسموعٍ أو زمانٍ أو مكانٍ فقد يتشاءمُ الإنسانُ من رؤيةِ شخصٍ معينٍ فيقولُ: اليومَ الَّذِي أرى فيه فلانًا يحدثُ لي كَذا وكَذا، يعني من المصائبِ أو قد يعزمُ عَلَى أمرٍ ما فيسمعُ خبرًا سَيئًا فإذا هو يتشاءمُ ويرجعُ عن هَذَا الأمرِ ويظنُّ أَنَّهُ لو استمرَ فيه فسوفَ يحدثُ له مكروهٌ، وكذلِكَ من النَّاسِ من يحدثُ له ابتلاءٌ فِي مكانٍ ما أو بلدٍ ما فيدفعه ذَلِكَ للتشاؤم فيعزمُ عَلَى عدمِ الذهابِ إِلَى هَذَا المكانِ أو تلكَ البلدةِ وكذا الأيامُ أو الساعات فمن النَّاسِ من يتشاءمُ بيومٍ من أيامِ الأسبوعِ فلا يخرجُ فِي هَذا اليوم وَلاَ يقبلُ عَلَى بيعٍ أو شراءٍ وكل ذَلِكَ من أمورِ الجاهليةِ الَّتِي نَهى عَنها الإسلامُ.

عَن أنسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لاَ عَدْوى وَلاَ طِيرَةَ وَيُعْجِبُنِي**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٥٣) وما بعدها باختصار.

الْفَأْلُ» قالوا: وما الفأل؟ قَالَ: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**»[١].

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لاَ عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ وَلاَ صَفَرَ**[٢] **وَلاَ هَامَةَ**[٣]»[٤]

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٦) ومسلم (٢٢٢٤).

(٢) صفر: فيه تأويلان: أحدهما: المراد تأخيرهم تحريم المحرم إِلَى صفر، الثاني: أن الصفر دواب في البطن وهي دود، وكانوا يعتقدون أن في البطن دابة تهيج عند الجوع، وربما قتلت صاحبها- مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٧٤).

(٣) هامة: فيه تأويلان: أحدهما: أن العرب كانت تتشاءم بالهامة، وهي الطائر المعروف من طير الليل وقيل هي البومة، قالوا: كانت إذا سقطت عَلَى دار أحدهم رآها ناعية له نفسه أو بعض أهله.

الثاني: أن العرب كانت تعتقد أن عظام الميت وقيل روحه تنقلب هامة تطير وهَذَا تفسير أكثر العلماء- المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧١٧) ومسلم (٢٢٢٢) واللفظ له.

الْمَرَضُ الخامسُ والعشرون
الاستهانة بالنعمِ

نعمُ الله تَعَالَى عَلَى العبادِ شيءٌ عظيمٌ نعمٌ ظاهرةٌ ونعمٌ باطنةٌ لا يستطيعُ أحدٌ عدَّهَا وَلاَ حصرَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قال السعديُّ فِي تفسيرِها: فضلاً عن قيامِكُم بشكرِهَا: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ أي: هَذِهِ طبيعةُ الإنسانِ من حيثُ هو ظالمٌ متجرئ عَلَى المعاصي مقصرٌ فِي حقوقِ ربِّهِ كافرٌ لنعمِ الله لا يشكرُهَا وَلاَ يعترفُ بها، إلا من هداه اللهُ فَشَكَرَ نعمَهُ وعرفَ حقَّ ربِّهِ وقامَ به[١].

القلبُ الَّذِي يستهينُ بنعمِ الله قلبٌ غافلٌ جاحدٌ حرمَ الطمأنينةَ والسكينةَ والرضا، حرمَ سعادةَ الدارين، وكيف يهدأُ ويرضي وقد استهانَ بالنعمِ وما صرف عَنْهُ من النقمِ فينبغي للعاقلِ أن يجعلَ لنفسِه ساعةً يتأمُل فيها نعمَ الله عَلَيْهِ من معافاةٍ فِي بصرِه وسمعِه وبدنِه يتأملُ نعمةَ الأمنِ والأمانِ نعمةَ الطعامِ والشرابِ نعمةَ المسكنِ والملبسِ وغيرها مِن النعم بل عَلَى العاقلِ التحديقُ فِي كلِّ نعمةٍ حَتَّى يُمَرَّنَ القلبُ عَلَى استشعارِ النعمِ ثُمَّ يسألُ نفسَه لو أَنَّهُ فقدَ نعمةً من هَذِهِ النعمِ كيف يكونُ حالُه لو فقد بصرَه أو سمعَه أو دُمِّرَ مسكنُه أو ضيقَ عَلَيْهِ فِي رزقِه فلا يجدُ ما يسدُّ به جوعَه وجوعَ أولادِه كَمَا يحدثُ لكثيرٍ من المسلمين فِي مشارقِ الأرضِ، ومغاربِها وهَذَا واقعٌ لا يُخفى، كيف تكونُ حياتُه؟ قد علَّمَنَا رِسُولُ الله ﷺ

---

(١) تفسير العلامة السعدي (٤٢٦).

إذا أوينَا إِلَى الفراشِ أن نقولَ: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوانَا فَكَمْ مِمَّنْ لاَ كَافِيَ لَهُ وَلاَ مُؤْوِيَ**»[١] عَلَى الَّذِي جَهِلَ نعمَ الله تَعَالَى أن يتذكرَ أعظمَ النعمِ عَلَى الإطلاقِ ألا وهي نعمةُ الإسلامِ فلو لم يرزق غيرها لكانت كافيةً بل لو عاش العبدُ منذ أن ولدَ حَتَّى ماتَ وَهوَ فِي طاعةٍ لم يعص الله قط لما حقق شكرَ هَذِهِ النعمةِ... فتأمّل وانظر كيف أنت لو ولدتَ كافرًا؟

قال العلامةُ ابنُ القيمِ[٢]:

فِي معرضِ كلامِه عن النعم هَذَا مع تواترِ إحسانِ الله إليك عَلَى مَدى الأنفاسِ: أزاحَ عللَك ومكَّنَكَ من التزودِ إِلَى جنته، وبعث إليك الدليلَ وأعطاك مؤنةَ السفرِ وما تتزودُ به وما تحاربُ به قطاعَ الطريقِ عليك، فأعطاك السمعَ والبصرَ والفؤادَ وعرَّفك الخيرَ والشرَّ والنافعَ والضارَ وأرسل إليك رسولَه وأنزل إليك كتابَه، ويسَّرَه للذكرِ والفهم والعملِ وأعانَك بمددٍ من جندِه الكرام يثبتونَك ويحرسونَك ويحاربُونَ عدوَّكَ ويطردونه عنكَ ويريدون منك ألاَّ تميلَ إليه وَلاَ تصالحَهُ وهم يكفونَك مؤنَته وأنت تَأبى إلا مظاهرته عليهم وموالاته دونهم، بل تظاهره، وتواليه دون وليَّك الحقَّ الَّذِي هو أَولى بِك.. أمركَ اللّهُ بشكره، لا لحاجتِه إليكَ ولكن لتنالَ به المزيدَ من فضلِه، فجعلتَ كفرَ نعمِه والاستعانةَ بها عَلَى ما سخطه من أكبرِ أسبابِ صرفِها عنك انتهى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٥) وغيره.
(٢) تهذيب المدارج (١٢٧).

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

النعمُ ثلاثٌ:

نعمةٌ حاصلةٌ يعلمُ بها العبدُ.

ونعمةٌ منتظرةٌ يرجوهَا.

ونعمةٌ هو فيها لا يشعرُ بها.

فإذا أرادَ اللهُ إتمامَ نعمتِه عَلَى عبدِه عرفَه نعمتَه الحاضرةَ وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به حَتَّى لا تشردَ فإنها تُشرّدُ بالمعصيةِ وتُقيَّدُ بالشكرِ.

ووفَّقه لعملٍ يستجلبُ به النعمةَ المنتظرةَ وبصَّرَهُ بالطرقِ الَّتِي تسدُّها وتقطعُ طريقَها، ووفَّقَه لاجتنابِها، وإذا بها قد وافت إليه عَلَى أتمَّ الوجوه، وعرفَه النعمَ الَّتِي هو فيها وَلاَ يشعرُ بها.

ويُحكى: أنَّ أعرابيًّا دخلَ عَلَى الرشيدِ فقال: أميرَ المؤمنين ثبتَ اللهُ عليك النعمَ الَّتي أنت فيها بإدامة شكرِها، وحققَ لك النعمَ الَّتِي ترجوها بحسنِ الظنَّ به ودوام طاعتِه، وعرفَكَ النعمَ الَّتِي أنت فيها وَلاَ تعرفهَا لتشكرها فأعجبه ذَلِكَ منه وَقَالَ: ما أحسن تقسيمَه[1].

الاستهانةُ بنعمةِ المعافاةِ فِي الدين:

لو عرفَ أهلُ طاعةِ الله أنَّهم هم المنعَمُ عليهم فِي الحقيقةِ وأنَّ لله عليهم من الشكرِ أضعافُ مَا عَلَى غيرهم وإن توسدوا الترابَ ومضغوا

---

(١) فوائد الفوائد (٣٩٥).

الحصى- فهم أهلُ النعمةِ المطلقةِ وأن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقطَ من عينه وهانَ عَلَيْهِ وأن ذاك ليسَ من كرامتِه عَلَى ربهِ- وإن وسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ومدَّ له من أسبابِها- فإنَّهم أهلُ الابتلاءِ عَلَى الحقيقةِ.

فإذَا طالبت العبدَ نفسُه بما تطالبه من الحظوظِ والأقسامِ وأدَّته فِي بليةٍ وضائقةٍ تداركَهُ اللهُ برحمتِه وابتلاهُ ببعض الذُّنُوب فرأى ما كانَ فيه من المعافاةِ والنعمةِ وأنَّهُ لا نسبةَ لما كَانَ فيه من النعمِ إِلَى ما طلبتُه نفسُه من الحظوظِ فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إِلَى حاله وأن يمتعه الله بعافيته[١].

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٨١).

الْمَرَضُ السادسُ والعشرون
استعظامُ الدُّنْيَا والاستهانةُ بمصائبِ الدين:

خلقَ اللهُ تَعَالَى الخلقَ لغايةٍ ذكرهَا سُبْحَانَهُ فِي كتابِه العزيزِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فانقسمَ الخلقُ إِلَى قسمين:

قسمٌ: عَلِمَ علمَ اليقين أنَّهم ما خلقوا إلا لتحقيقِ العبودية لله تَعَالَى: فهم يتقلبونَ بَيْنَ الحمدِ والشكرِ عند النعم والصبرِ والاحتسابِ عندَ النقمِ، علموا أن الدُّنْيَا دارُ ممرٍ لا مقرٍ فعملوا لها بقدر بقائِهم فيها وعملوا للآخرة بقدرِ مقامِهم فيها، وهم عَلَى يقينٍ من وعدِ الله ورسولِه لهم بالجنةِ الَّتِي هي دارُ السعادةِ الأبديةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨٢﴾ [البقرة: ٨٢].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشرٍ**»[1]، وغير ذَلِك من النصوصِ الدالة عَلَى وعدِ اللهِ تَعَالَى المؤمنين بالخلودِ فِي دارِ النَّعيمِ.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤) واللفظ لمسلم.

هؤلاءُ القومُ لا يبالون بمصائبِ الدُّنْيَا فهم يعلمون أن عمرَها قصيرٌ وخطرَها يسيرٌ وشأنَها حقيرٌ.

فانشغلوا بما خلقوا من أجلِه فنالوا سعادةَ الدارين الدُّنْيَا والآخرة.

أما القسمُ الثاني: فهم الذين مَلأَ قلوبَهم حبُّ الدُّنْيَا والهمُّ والحزنُ عَلَى فواتها، فهم لا يبالون بمصائبِ الدين، شأنهم فِي الحرصِ عَلَى الدُّنْيَا كشأن اليهودِ والذين أشركوا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

والمعنى- والله أعلم- لتجدنَّ أشدَ النَّاسِ حرصًا عَلَى طولِ الحياةِ وطولِ العمرِ والبقاءِ اليهودَ فهو أشدُّ النَّاسِ حرصًا عليها حَتَّى أَنَّهم أشدُّ حرصًا عليها من الذين أشركوا المنكرين للبعثِ الَّذِي يطمعُ أحدُهم أن يعيشَ ألفَ سنةٍ... فالمشركون لا يقرون ببعثٍ وَلاَ بجنةٍ وَلاَ بنارٍ وَلاَ بحسابٍ ومن ثَمَّ كَانَ مطعمُهم فِي الحياة الدُّنْيَا ورغبتهم فِي طولِ البقاءِ فيها شديدة فغلبهم اليهود فِي الحرص عَلَى الحياة الدُّنْيَا رغم أن اليهود يقرون بالبعثِ وبالجنةِ والنارِ، وما حملهم عَلَى هَذَا الحرص فِي طولِ الحياةِ إلا سوءُ أعمالِهم الَّتِي يخشون من جرائِها النارَ وعظيم كبائِرهم الَّتِي يتوقعون لها سوءَ القرارِ(١).

صاحبُ القلبِ المريضِ لا يتأثر بالمصيبةِ فِي الدين، فقد يكونُ مُبتلى بأكلِ أموالِ النَّاسِ أو بالنظرِ إِلَى النساءِ أو بالغشِ والكذبِ والخداعِ

---

(١) تفسير سورة البقرة لشيخنا حفظه الله (٢/ ١١١-١١٢) باختصار.

لتحقيقِ غرضٍ من أغراضِ الدُّنْيَا أو قد يكونُ مُبتلى بتركِ الصلاةِ أو الصيامِ أو عدمِ إخراجِ الزكاةِ أو تركِ فريضةِ الحجَّ وقد تكونُ ا لأختُ مُبتلية بالتبرج والسفورِ أو الكبرِ والعجبِ أو بعقوقِ الزوج أو بسوءِ الخُلُقِ... إِلَى غير ذَلِكَ من مصائبِ الدين مع هَذَا لا تجدُ أحدًا من هؤلاءِ يجاهدُ نفسَه عَلَى إصلاحِ دينِه أو حَتَّى يسأَلَ عن الطريقِ الموصلِ إِلَى اللهِ فهم لا يبالون ومع ذَلِك سيُسألون.

فالأمرُ عظيمٌ والآياتُ القُرْآنيةُ الَّتِي تدلُّ عَلَى ما نقولُ كثيرةٌ جدًّا لا يتسعُ المقامُ لسردِها لكن فقط أذكرُ قولَ الله تَعَالَى فِي شأنِ الذين ظلموا أنفسَهم الذين استبدلُوا الَّذِي هو أدنى بالَّذِي هو خيرٌ: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ووردَ فِي الصحيحين من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم لَضَحِكْتَّم قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»(١).

هَذَا والَّذِي ينتفعُ بالموعظة هم أولُو الألبابِ وأولو العقولِ السديدة والقلوبِ السليمةِ كَمَا أخبرنا بذَلِك ربُّنَا تبارك وتَعَالَى، قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

واللهُ الهادي إِلَى سواءِ السبيلِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٦) ومسلم (٢٣٥٩) مطولاً.

المَرَضُ السابعُ والعشرون: قلةُ الحياءِ مِن الله

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ فِي صحيحهما من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الإِيمَانُ بِضعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[١].

اللهُ تَعَالَى حييٌّ يحبُّ الحياءَ:

عن سلمانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[٢].

قال العلامةُ ابن القيم[٣]:

وأما حياءُ الرَّبِّ تَعَالَى من عبدِه فذاك نوعٌ آخرُ لا تدركه الأفهام وَلاَ تكيفه العقولُ، فإنه حياءُ كرمٍ وبرَّ وجودٍ وجلالٍ فإنَّه تباركَ وتَعَالَى حييٌّ كريمٌ يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا، ويستحي أن يعذبَ ذا شيبةٍ شابت فِي الإسلامِ.

قال المباركفوري: قوله: «إِنَّ اللهَ حييٌّ» فَعيلٌ من الحياءِ أي كثيرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) واللفظ للبخاري.
(٢) صحيح سنن أبي داود (١٤٨٨) وصحيح الترمذي (٣٥٦٦) وابن ماجه (٣١١٧).
(٣) نقلاً من صلاح الأمة في علو الهمة (٥/ ٥٣٢).

الحياءِ ووصفه تَعَالَى بالحياءِ يُحملُ عَلَى ما يليقُ له، كسائرِ صفاتِه نؤمنُ بها وَلاَ نكيفها[١].

عَنْ أَبِي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ: «كان رسول الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا فَإِذَا رَأَى شَيئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»[٢].

وَقَال ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[٣].

أنواعُ الحياء[٤]:

وقد قُسِّمَ الحياءُ عَلَى عشرة أوجه: حياءُ جنايةٍ وحياءُ تقصيرٍ، وحياءُ جلالٍ وحياءُ كرمٍ وحياءُ حشمةٍ، وحياءُ استصغارٍ للنفس، واحتقارٍ لها، وحياءُ محبةٍ وحياءُ عبوديةٍ وحياءُ شرفٍ وعزةٍ وحياءُ المستحي من نفسه.

فأما حياءُ الجناية: فمنه حياءُ آدمَ عَلَيْهِ السلامُ لما فرَّ هاربًا من الجنةِ قَالَ تَعَالَى: أفرارً مني يَا آدمُ؟ قَالَ: لا يارب بل حياءٌ مِنك.

وحياءُ تقصير: كحياءِ الملائكةِ الذين يسبحون الليلَ والنهارَ لا يفترون، فإذا كَانَ يومُ القيامةِ قالوا: سبحانَك ما عبدناك حقَّ عبادَتِك.

وحياءُ الإجلالِ: هو حياءُ المعرفةِ وعَلَى حسبِ معرفةِ العبدِ بربَّه

(١) تحفة الأحوذي (٢/ ٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٩) ومسلم (٢٣٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٣).

(٤) تهذيب المدارج (٣٩٠، ٣٩١).

يكونُ حياؤُه منه.

وحياءُ كرمٍ: كحياءِ النَّبِيَّ ﷺ من القومِ الَّذِي دعاهُم إِلَى وليمةِ زينبَ وطولوا الجلوسَ عنده، فقامَ واستحيى أن يقولَ لهم انصرفوا.

وحياءُ حشمةٍ: كحياءِ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسألَ رسولَ الله ﷺ عن المذي لمكانِ ابنته منه.

وحياءُ الاستحقارِ واستصغار النفسِ: كحياءِ العبدِ من ربَّه عَزَّ وَجَلَّ حين يسأله حوائجه، واحتقارًا لشأن نفسه واستصغارًا لها.

وقد يكون لهَذَا النوع سببان:

أحدهُما: استحقارُ السائلِ نفسَه، واستعظامُ ذنوبِه وخطاياه.

الثاني: استعظامُ مسؤلِه.

وأما حياءُ المحبةِ: فهو حياءُ المحبَّ من محبوبِه حَتَّى إنه إذا خطرَ عَلَى قلبه فِي غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به فِي وجه، وَلاَ يدري ما سببه، وكذَلِكَ يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة، ومنه قولهم: «**جمال رائع**» وسبب هَذَا الحياء والروعة مما لا يعرفه النَّاس.

وأما حياءُ العبودية: فهو حياءٌ ممتزجٌ من محبةٍ وخوفٍ ومشاهدة عدم صلاحِ عبوديتِه لمعبودِه، وأنَّ قدرَه أعَلَى وأجلُّ منها فعبوديتهُ له توجبُ استحياءً منه لا محالة.

وأما حياءُ الشرفِ والعزةِ: فحياءُ النفسِ العظيمة الكبيرةِ إذا صدرَ منها ما هو دون قدرِها من بذلٍ وعطاءٍ وإحسانٍ فإنَّه يستحي مع بذله حياءَ شرفِ النفسِ وعزةٍ وهَذَا له سببان:

أحدهما: هَذَا.

والثاني: استحياؤُه من الآخذِ حَتَّى كأَنَّه هو الآخذُ السائلُ، حَتَّى إن بعضَ أهلِ الكرمِ لا تطاوعه نفسُه لمواجهتِه لمن يعطيه حياء منه، وهَذَا يدخلُ فِي حياء التلوم لأَنَّه يستحي من خجلةِ الآخذِ.

وأما حياءُ المرءِ من نفسهِ: فهو حياءُ النفوسِ الشريفةِ العزيزةِ الرفيعةِ من رضاها لنفسِها بالنقصِ وقناعتها بالدون، فيجد نفسَه مستحييًا من نفسِه حَتَّى كأن له نفسين يستحي بإحداهما من الأخرى، وهَذَا أكملُ ما يكونُ من الحياءِ، فِإنَّ العَبْدَ إذا استحى من نفسِه فهو بأن يستحي من غيرِه أجدر انتهى.

أين حياؤُك أيها المسلم: وأنت تجلسُ أمامَ التلفاز تشاهدُ وتسمعُ ما يغضبُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، أين حياؤُك أيها الشابُ المسلمُ وأنت تدخلُ عَلَى المواقع الإباحية عبر الإنترنت تبحث عن الحرامِ وتغفل وتنسى أن اللهَ يرى مكانَك ويسمعُ كلامَك، وَهُوَ سُبْحَانَهُ شهيدٌ عليك ويومَ القيامةِ – إذا لم تتب- فسيفضحك عَلَى رءوسِ الخلائقِ، أين حياؤُك أيها الموظفُ المسلمُ وأنت تساومُ عبادَ الله، إما يدفعَ لك الرشوةَ وإما تعطلُ مصلحةً هي حقُّ له، أين حياؤُك وأَنت تأكلُ الربا وقد حرمه الله، أين حياؤُك وأنت تكذبُ أمام أبنائِك وزوجتك وأنت لهم قدوةٌ... أين حياؤُك أيتها الأختُ المسلمةُ حين تخرجين من بيتك سافرةً متبرجةً متعطرةً وتمرينَ بَيْنَ الرجالِ مع اختلافِ أخلاقِهم وأعمارِهم وحالِهم فمنهم المتزوجُ المحصنُ ومنهم الشابُ الَّذِي لا يستطيعُ أن يعفَّ نفسَهُ ومنهم المدمنُ للخمرِ والمخدرات،

أي منهم الصالحُ والطالحُ... أين حياؤُك، أين حياءُ المسلمين؟ قَلَّ حين قَلَّ الإيمانُ من القلبِ وَلاَ حولَ وَلا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ.

من صورِ حياءِ الصالحين:

عن عبادةَ بن نسي قَالَ: رأى أبو موسى قومًا يقفون فِي الماء بغير أزر، فقال: لأنْ أموتَ ثُمّ أنشرُ ثُمَّ أموتَ ثُمَّ أنشرُ ثُمَّ أموتَ ثُمَّ أنشرُ، أحبّ إلَيَّ من أن أفعلَ مثل هَذَا.

وَقَالَ أبو عبد الله الأنطاكي: أفضلُ الأعمالِ تركُ المعاصي الباطنةِ، فقِيْلَ له، ولم ذلك؟ قَالَ: لأن الباطنةِ إذا تُركت كَانَ صاحبُها للمعاصي الظاهرةِ أترك.

وكان أحد الزهاد يقول: يا ويحي!! عاملت النَّاس بالأمانةِ وعاملت ربي بالخيانةِ فليتني عكست ثُمَّ يبكي.

قال محمدُ بن الفضل: ما خطوت أربعينَ سنةٍ خطوةً لغيرِ الله، وأربعين سنة ما نظرتُ فِي شيء استحسنه حياءً من الله[١].

وعن محمد بن واسع قَالَ: كَانَ لقمان عَلَيْهِ السلامُ يقول لابنه: يا بني اتق اللهَ وَلاَ ترَ النَّاس أنَّك تخشى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ليكرموك بذَلِكَ وقلبك فاجرٌ.

---

(١) الحياء للشيخ محمد أحمد إسماعيل (٢٩) نقلاً من صلاح الأمة في علوم الهمة (٥/٥٦٦).

وَقَالَ بلالُ بن سعدٍ: لا تكن وليًّا لله عَزَّ وَجَلَّ فِي العلانيةِ وعدوَّه فِي السرَّ.

وَقَالَ فرقد: إن المنافقَ ينظرُ فإذا لم ير أحدًا دخل مدخلَ سوءٍ وإنَّمَا يراقبُ النَّاسَ وَلاَ يراقبُ اللهَ تَعَالَى (١).

عن ثوبان عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا**» قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ الله!! صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَلا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذا خَلَوْا بِمَحَارم الله انْتَهَكُوهَا**»(٢).

وأختتمُ هَذَا البابَ بمثالِ عالٍ راقٍ فِي الحياءِ والطهرِ للمرأةِ المسلمةِ:

قَالَ تَعَالَى مخبرًا عن موسى عَلَيْه السلامُ عندما فرَّ من فرعون وقومه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: ٢٣] هَذَا الأدبُ يتمثلُ فِي حيائهما وابتعادِهما عن مزاحمةِ ومخالطةِ الرجالِ وفي الحديث عن رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «**ليسَ النساء وَسطَ الطَّرِيقِ**»(٣)

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ قَالَ بعضُ أهلِ العلمِ: فكأنَّ المرأتين أجابتَا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٤٢٤٥) وغيره.

(٣) صحيح ابن ماجه (٣٧٥٠) وغيره.

مسبقًا عن سؤال قد يوجه إِلَيْهما: فلماذا خرجتما إذن؟ وما دمتا لا تختلطان، فلماذا لا تقران فِي بيوتكما؟

فأجابتا بما حاصلُه: إنه ليسَ من شيمِتنَا الخروجُ وَلاَ مخالطةُ الرجالِ، ولكنا اضطررنَا للخروجِ لكون أبينَا شيخًا كبيرًا.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي شأنِ إِحدى المرأتين ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ...﴾ [القصص: ٢٥].

قال بعضُ أهلِ العلمَ: إن الاستحياءَ لم يكن عند كلامها مع موسى فقط، إنَّما كَانَ فِي مشيتِها أيضًا، فلم يكن استحياءً متكلفًا أمامَ موسى عَلَيْه السلامُ بل جبلت عَلَى الحياءِ وكانَ ديدنَها والله تَعَالَى أعلمُ(١).

قال صديقُ خان فِي فتحِ البيانِ:

﴿تَمْشِى﴾ كائنة ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ حالَّتِي المشي والمجيء، لا عند المجيء فقط، وهَذَا دليلٌ عَلَى كمالِ إيمانِها وشرفِ عنصرهَا لأنَّها كانت تدعوه إِلَى ضيافتِها ولم تعلم أيجيبها أم لا فأتتهُ مستحيةٌ(٢).

---

(١) تفسير سورة القصص لشيخنا حفظه الله (٦٩).
(٢) المصدر السابق.

الْمَرَضُ الثامنُ والعشرون
كراهيةُ ما أنزلَ اللّٰهُ

من كره ما أنزلَ الله جملةً وتفصيلاً فقد كَفَرَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝﴾ [محمد: ٨، ٩].

قال القرطبيُّ رحمَهُ اللهُ: أي ذَلِكَ الإضلالِ والإتعاسِ لأَنَّهم: ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتبِ والشرائعِ ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي ما لهم من صور الخيرات لعمارةِ المسجدِ وقري الضيفِ وأصنافِ القربِ وَلاَ يقبلُ الله العملَ إلا من مؤمنٍ، وقِيْلَ: أحبطَ أعمالَهم أي: عبادةَ الصّنمِ (١) اهـ.

ومن تأمَّلَ أحوالَ المسلمين وجد فيهم من يكره أشياءَ كثيرةً مما أنزلَ اللهُ فِي كتابِه أو جاءت فِي سنةِ نبيِّه ﷺ فترى الرجلَ يُصلي ويصومُ ويتصدقُ ثُمَّ هو يكره شكلَ اللحية، ومنهم من يسبُّ أصحابَ اللحى وينسبُ إِلَيْهِم السوءَ ظُلْمًا وزورًا كراهةً فِي شكلِ اللحية، بل تجدُ من المسلمين من يعادي ولده إذا أرادَ أن يطلقَ لحيتَه وقد تصلُ العداوةُ إِلَى السبِّ والضربِ بل قد يطردُه من البيتِ ولو نزع غشاءَ الهوى والغفلةِ ما فعلَ ذلك، لأن الَّذِي أمره بالصلاةِ والصيامِ وفرضّ عَلَيْهِ الحجَّ والزكاةَ وغير ذَلِك من شرائعِ الإسلامِ هو الَّذِي أمرَ بإطلاقِ اللحيةِ فقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ فِي صحيحهما من حديثِ عبدِ الله بن عمر عن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**خَالِفُوا**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٢٥).

المُشْرِكِينَ وَفِّرُوا اللِّحَى وَأَحْفُوا الشَّوارِبَ»[١] وفي روايةٍ «انْهَكُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى»[٢]

وغيرَ ذَلِك من النصوصِ ولسنا بصددِ تحريرِ مسألةٍ فقهيةٍ، لكن جمهورُ العلماءِ سلفًا وخلفًا عَلَى أنَّ إعفاءَ اللحيةِ واجبٌ.

أيضًا تجدُ المرأةَ مسلمةً تُصلي وتُصوم وتُكره الحجابَ أو قد تكون محجبةً لكن تكره النقابَ وتسبُّ المنتقبات وتمنعُ ابنتها من لبسِه، فتراها تجمعُ أقوالاً من هنا وهناك حَتَّى تثبتَ أنَّ النقابَ ليس من الدين مع العلمِ أن للعلماءِ فِي مسألة النقابِ قولين لا ثالث لهما، فريق قَالَ: إنه فرضٌ والفريقُ الآخرُ قَالَ: إنه سنةٌ، والكلُّ اجتمعوا عَلَى فرضيةِ النقابِ إذا لم تأمنْ الفتنةُ، ونحن فِي زمانِ الفتنِ بلا شك، هَذَا ولم يقل أحدٌ من فقهاءِ السَّلفِ وأئمةِ الدين المعتبرين إن النقابَ بدعةٌ أو أَنَّهُ ليسَ من الدينِ، فَهَذَا القولُ قولٌ محدثٌ من أقوالِ أهلِ البدع والأهواءِ.

واعلم أَنَّهُ لا يصحُّ إيمانُ عبدٍ حَتَّى يقبلَ شرعَ الله تَعَالَى كاملاً وإن تركَ بعضَ الطاعات لضعفِ إيمانِه واستيلاء الشهوات عَلَيْهِ لكنه يقرُّ بهذه الطاعات وَلاَ يقرها لعلمه أن الَّذي أمرَه بها هو اللهُ سُبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [المبين: ٢٠٨] فقد أمرَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى وعَزَّ وَجَلَّ عبادَه المؤمنينَ أن يدخلوا فِي الإسلام كافةً أي بقبول شرائعِ الدين وَلاَ

(١) أخرجه البخاري (٥٨٩٢) ومسلم (٢٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (٥٨٩٣).

يتركوا منها شَيئًا[١].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

أي يسلموا لحكمه ﷺ وطاعتِه الَّتِي هي طاعةٌ لله، وذَلِكَ بانشراحِ الصدرِ ورضى النفسِ والانقيادِ لأوامرِ الله ظاهرًا وباطنًا والأدلةُ الدالة عَلَى وجوبِ قبولِ شرعِ الله كاملاً دون حرجٍ كثيرٌ جدًّا وما ذكرناه عَلَى سبيلِ المثالِ لا الحصر فكيف يصحُّ إسلامُ عبدٍ مع كراهيته شيئًا أو أشياءَ أنزلها اللهُ...؟

(١) انظر تفسير السعدي.

الْمَرَضُ التاسعُ والعشرونَ: سوءُ الظنّ باللهِ

هَذَا المَرَضُ مرضٌ عضالٌ يهلكُ العبدَ لا محالةَ، ذَلِكَ لأَنَّه يتعلقُ بمعتقدِه فِي خالقِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعَزَّ وَجَلَّ فإذَا صحَّ معتقدُ العبدِ صحَّ دينُه وإذا فسد فسدَ دينُه، وقد أفادَ وأجادَ العلامةُ ابنُ القيمِ رحمَه اللهُ فِي هَذَا البابِ، وإليك نقلَ كلامِه.

قالَ- رحمهُ اللهُ[1]: إن أعظمَ الذُّنُوبِ عند الله إساءةُ الظنَّ به، فإنَّ المسيءَ به الظنَّ قد ظنَّ به خِلافَ كمالِه المقدسِ وظَنَّ به ما يناقض أسماءَه وصفاتِه، ولهَذَا توعدَ اللهُ سُبْحَانَهُ الظانينَ به ظنَّ السوءِ بما لم يتوعدْ به غيرَهم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦] وَقَالَ تَعَالَى لمن أنكرَ صفةً من صفاتِه: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣] قَالَ تَعَالَى عن خليلِه إبراهيمَ أَنَّهُ قَالَ لقومِه: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧] أي ما ظنُّكُم أن يجازيَكُم به إذا لَقِيتُمُوه وقد عبدتُم غيره؟ وما ظننتم به حَتَّى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاتِه وربوبيته من النقص حَتَّى أحوجكم ذَلِكَ إِلَى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهلُه من أَنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٍ وَهُوَ عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ وأَنَّهُ غني عن كلِّ ما سواه وكل ما سواه فقيرٌ إليه، وأنه قائمٌ بالقسطِ عَلَى خلقِه وأنه المنفردُ بتدبيره خلقِه لا يَشْرَكُه فيه غيرُهُ والعالمُ بتفاصيلِ الأمورِ، فلا يخفى

---

(١) الداء والدواء (١٦٣) وما بعدها باختصار.

عَلَيْهِ خافيةٌ من خلقِه، والكافِي لهم وحده فلا يحتاجُ إِلَى معينٍ والرحمنُ بذاتِه فلا يحتاجُ إِلَى رحمتِه إِلَى من يستعطفُهُ وهَذَا بخلافِ الملوكِ وغيرهم من الرؤساء فإِنَّهم يحتاجون إِلَى من يعرِّفُهُم أحوالَ الرعيةِ وحوائجَهم ويعينهم إِلَى قضاءِ حوائجِهم وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعةِ فاحتاجوا إِلَى الوسائط ضرورةً لحاجتِهم وضعفِهم وعجزِهم وقصورِ عملِهم... فإدخالُ الوسائطِ بينَه وبينَ خلقِه تنقصُ بحقِّ ربوبيتِه وإلهيتِه وتوحيدِه وَظُنَّ به ظَنَّ السَّوءِ... يوضحُ هَذَا أَنَّ العابدَ معظمٌ لمعبودِه متألِهٌ خاضعٌ ذليلٌ لَهُ، والرَّبُّ تَعَالَى وحدَه الَّذِي يستحقُّ كمالَ التعظيمِ والإجلالِ والتألهِ والخضوعِ والذلَّ وهَذَا خالصُ حقِّهِ فمِن أقبح الظلمِ أَنْ يُعْطَي حقُّهُ لغيرِه أو يشرك بينه وبينه فيه ولا سيما إذا كَانَ الَّذِي جعلَ شريكَه فِي حقَّه هو عبدُه ومملوكُه... إِلَى أن ذَكَرَ قَولَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

فَما قَدَرَ مَن هَذَا شأنُه وعظمته حقَّ قدرِه من أشركَ معه فِي عبادتِه مَن ليسَ له شيءٌ من ذَلِكَ ألبتةَ وكذَلِكَ ما قَدَرَه حقَّ قدرِه مَن قَالَ: إنه يعاقبُ عبدَه عَلَى ما لا يفعلُه العبدُ وَلاَ لَه عَلَيْهِ قدرةٌ وَلا تأثيرٌ له فيه ألبتة بل هو نفسُ فعلِ الربَّ جلَّ جلالُه، فيعاقبُ عبدَه عَلَى فعلِه هو سُبْحَانَهُ الَّذِي جبرَ العبدَ عَلَيْهِ وجبرُه عَلَى الفعلِ أعظمُ من إكراهِ المخلوقِ للمخلوقِ، وإذا كَانَ من المستقرَّ فِي الفطرِ والعقولِ أن السَّيِّدَ لو أكرَهَ عبدَه عَلَى فعلٍ أو ألجأَه إليه ثُمَّ عاقبَه عَلَيْه لكانَ قبيحًا، فأعدلُ العادلين وأحكمُ الحاكمين وأرحمُ الراحمين، كيف يجبرُ العبدَ عَلَى فعلٍ لا يكونُ للعبدِ فيه صنعٌ وَلاَ تأثيرٌ وَلاَ

هو واقعٌ بإرادِته، بل وَلاَ هو فعلُه ألبته ثُمَّ يعاقبُهُ عَلَيْهِ عقوبةَ الأبدِ، تَعَالَى اللهُ عن ذَلِكَ علوًّا كبيرًا وقولُ هؤلاء شرٌّ من أقوالِ المجوسِ، والطائفتان ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدرِه.

وكذَلِك ما قَدَرَهُ حقَّ قدرِه من لم يصنْهُ من نتنٍ وَلا حُشٍّ وَلاَ مكان يرغبُ عن ذكرِه بل جعلَه في كلِّ مكانٍ صانَه عن عرشِه أن يكونَ مُستويًا عَلَيْهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وتعرجُ الملائكةُ والروحُ إليه وتنزلُ مِن عِنْدَهُ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥] فصانَه عن استوائِه عَلَى سريرِ الملكِ ثُمَّ جعلَه فِي كلِّ مكانٍ يأنفُ الإنسانُ بل غيرُه من الحيوانِ أنْ يكونَ فيهِ.

وما قَدَرَ اللهَ حقَّ قَدرِه مَن نَفَى حقيقةَ محبتِه ورحمتِه ورأفتِه ورضَاه وغضبِه ومقتِه وَلاَ مَن نَفَي حقيقةَ فعلِه ولم يجعلْ لهُ فعلاً اختياريًّا يقومُ به، بل أفعالُه مفعولاتٌ منفصلةٌ عَنه، فَنَفْيٌ حقيقةِ مجيئِه وإتيانِه واستوائِه عَلَى عرشِه وتكليمِه موسى من جانبِ الطورِ.

وكذَلِكَ لم يَقدُرْهُ حقَّ قَدرِهِ مَن جعلَ له صاحبةً وولدًا أو جعلَه سُبْحَانَهُ يحلُّ فِي مخلوقاتِه[1] أو جعلَه عينَ هَذَا الوجودِ.

وكذَلِكَ لم يَقدرْهُ حقَّ قدرِه من قَالَ: إنَّه يجوزُ أن يعذبَ أولياءَه ومن لم يعصه طرفةَ عينٍ ويدخلهم دارَ الجحيم وينعم أعداءَه ومن لم يؤمن به

(١) يشير إلى الحلولية الضالين الذين يقولون إن ذات الله حلت في الأشياء تَعَالى الله الملك الحق عما يقولون علوًا كبيرًا.

طرفةَ عينٍ ويدخلهم دار النعيمِ وأنَّ كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء وإنَّمَا الخبرُ المحض جاءَ عَنْهُ بخلافِ ذلك، وقد أنكرَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى من جوّزَ عَلَيْهِ ذَلِكَ غايةَ الإنكارِ وجعلَ الحكمَ له من أسوأ الأحكامِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

وكذَلِكَ لم يَقدُرْهُ قَدرَه مَن يزعمُ أَنَّهُ لا يُحيي الموتى وَلاَ يبعثُ مَن في القبورِ وَلاَ يجمعُ خلقَه ليومٍ يُجازي فيه المحسنُ بإحسانِه والمسيءُ بإساءتِه ويأخذُ المظلومُ فيه حقَّهُ من ظالمِه.

وكذَلِك لم يَقدُرْهُ حقَّ قدرِه من هَانَ عَلَيْهِ أمرُه فعصاهُ ونَهيُهُ فارتكبه وحقّه فضيَّعَه، وذكرُه فأهملّه، وغفل قلبه عَنْهُ وكانَ هواه آثرَ عِنْدَهُ من طلب رضاه، وطاعةُ المخلوق أهم من طاعتِه، فللهِ الفضلةُ من قلبِه وقولِه وعملِه، هواه المقدَّمُ فِي ذَلِكَ لأَنَّه المهمُ عِنْدَهُ ويستخفُ بنظرِ الله إليه وإطلاعِه عَلَيْهِ بكلِّ قلبه وجوارحه ويستحي من النَّاسِ وَلاَ يستحي من الله ويَخشَى النَّاسَ وَلاَ يخشَى اللهَ ويعاملُ النَّاسَ بأفضلِ ما يقدرُ عَلَيْهِ وإن

عاملَ الله عامَلَهُ بأهونِ ما عِنْدَهُ وأحقرِه وإن قامَ فِي خدمةِ من يحبّه من البشرِ قامَ بالجدِّ والاجتهادِ وبذلِ النصيحةِ وقد أفرغَ لَه قلبَه وجوارحَه وقدَّمه عَلَى مصالحِه حَتَّى إذا قامَ فِي حقِّ ربِّهِ- إن ساعدَ القدرُ- قامَ قيامًا لا يرضاه مخلوقٌ من مخلوقٍ مثله وبذلَ له من مالِه ما يستحي أن يواجَه به مخلوقٌ لمثلِه فهل قَدَّرَ الله حقَّ قَدرِه من هَذَا وصفه.

الْمَرَضُ الثلاثون- العشقُ

من الأمراض الَّتِي تتسببُ فِي فسادِ القلب: العشقُ وإذا فسدَ القلبُ فسدت نيةُ ا لعبدِ وفسدت أقوالُه وأعمالُه، فلا يسلم إيمانُ عبدٍ مع ابتلائِه بِهَذَا المرَض المضادِ للتوحيدِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال العلامةُ ابنُ القيم رحمه الله:

وعلامةُ العشقِ الشَّرْكيَّ الكفريَّ: أن يقدمَ العاشقُ رضاءَ معشوقِه عَلَى ربَّهِ وإذا تعارضَ عِنْدَهُ حقُّ المعشوقِ وحظُّه وحقُّ ربَّه وطاعته؛ قدَّمَ حقَّ معشوقِه عَلَى حقَّ ربَّهِ وآثرَ رضاه عَلَى رضاه، وبذلَ له أنفسَ ما يقدرُ عَلَيْهِ لربَّهِ – إن بذلَ- أردأَ ما عنده، استفرغَ وسعهُ فِي مرضاةِ معشوقِه وطاعتِه والتقربِ إليه وجعلَ لربَّهِ- إن أطاعَه- الفضلةَ الَّتِي تفضل من معشوقِه من ساعاته.

ولا ريبَ أن هَذَا العشقَ من أعظمِ الشَّرْكِ وكثيرٌ منهم يصرحُ بأنه لم يبقَ فِي قلبِه موضعٌ لغيرِ معشوقِه ألبتة، بل قد ملكَ عَلَيْه قلبَه كله فصارَ عبدًا محضًا من كل وجهٍ لمعشوقِه، وَلا نسبةَ بَيْنَ مفسدةِ هَذَا الأمرِ العظيمِ ومفسدةِ الفاحشةِ فإن تلكَ ذنبٌ كبيرٌ لفاعلِه حكم أمثاله، ومفسدةُ هَذَا العشقِ مفسدةُ الشَّرْكِ، وكان بعضُ الشيوخِ من العارفين يقولُ: لأنْ أُبتلي بالفاحشةِ مع تلك الصورةِ أحبَّ إليَّ من أن أُبتلي فيها بعشقٍ يتعبدُ لها قلبِي

ويشغله عن الله[1].

قالَ شيخُ الإسلامِ رحمه اللهُ:

فأمَّا من اُبتلي بِالعشقِ وعفَّ وصبرَ، فإنَّه يثابُ عَلَى تقواه، ومن المعلومِ بأدلةِ الشَّرْعِ أَنَّهُ إذا عف عن المحرمات نظرًا وقولاً وعملاً وكتمَ ذَلِك فلم يتكلم به حَتَّى لا يكونَ فِي ذَلكَ كلامٌ محرمٌ – إما شكوى إِلَى المخلوقِ وإما إظهارُ فاحشةٍ وإما نوعُ طلبِ العشقِ – وصبرَ عَلَى طاعةِ الله وعن معصيتِه وعَلَى ما في قلبِه من ألمِ العشقِ، كَمَا يصبر المصابُ عن ألم المصيبةِ فإنَّ هَذا يكونُ ممن اتَّقى الله وصبرَ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] والإنسانُ قد يبغضُ شيئًا فيبغضُ لأجلِه أمورًا كثيرةً بمجرد الوهمِ والخيالِ، وكذَلِك يحبُّ شيئًا فيحبُّ لأجله أمورًا كثيرةً لأجلِ الوهمِ والخيالِ كَمَا قاَلَ شاعرهم:

أُحِبُّ لِحبِّهَا السُّودَانَ حَتَّى ... أُحِبَّ لِحُبِّهَا سُودَ الكلابِ

فقد أحبَّ سوداءَ فأحبَّ جنسَ السوادِ حَتَّى فِي الكلابِ، وهَذَا كلُّه مرضٌ فِي القلبِ فِي تصوره وإرادتِه فنسألُ اللهَ تَعَالَى أن يعافي قلوبنَا من كلَّ داءٍ ونعوذُ بالله من منكرات الأخلاقِ والأهواءِ والأدواءِ.

والقلبُ إِنَّمَا خلقَ لأجلِ حبَّ الله تَعَالَى، وهذه الفطرُ الَّتِي فَطرَ اللهُ عليها عبادَه، كَمَا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كلُ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ**

---

(١) الداء والدواء (٢٤٤) وما بعدها باختصار.

جَدْعَاءَ»(١) ثُمَّ يقول أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: **٣٠**].

والرسلُ صَلى اللهُ عليهم وسلم بُعثوا لتقرير الفطرةِ وتكميلِها لا لتغييرِ الفطرةِ وتحويلِها وإذا كَانَ القلبُ محبًّا لله وحده مخلصًا له الدين لم يبتل بحبِّ غيرِه أصلاً، فضلاً أن يبتلى بالعشقِ وحيث أُبتلي بالعشقِ فلنقصِ محبتِه لله وحده.

ولهَذَا لما كَانَ يوسفُ محبًّا لله مخلصًا له الدين لم يبتل بذلك، بل قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: **٢٤**].

وأما امرأةُ العزيزِ فكانت مشركةً هي وقومها فلهَذَا ابتليت بالعشق وما يبتلى بالعشق أحدٌ إلا لنقصِ توحيدِهِ وإيمانِه وإلا فالقلبُ المنيبُ إِلَى الله الخائفُ منه فيه صارفان يصرفانه عن العشقِ:

أحدهما: إنابتُه إِلَى الله ومحبتُه له، فإنّ ذَلِكَ ألذُّ وأطيبُ من كلِّ شيءٍ، فلا تبقي مع محبةِ الله محبةُ مخلوقٍ تزاحمه.

الثاني: خوفُه من الله، فإنَّ الخوفَ المضادَ للعشقِ يصرفه وكل من أحب شيئًا بعشقٍ أو غير عشقٍ فإنه يصرفُ عن محبتِه بمحبةِ ما هو أحبُّ إليه منه، إذا كَانَ يزاحمُه، وينصرفُ عن محبتِه بخوفِ حصولِ ضررٍ يكونُ أبغضَ إليه من تركِ ذاك الحبِ، فإذا كَانَ اللهُ أحبَّ إِلَى العبدِ من كلِّ شيءٍ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨).

وأخوفَ عِنْدَهُ من كلِّ شيءٍ لم يحصل معه عشقٌ وَلاَ مزاحمةٌ إلا عندِ غفلةٍ أو عند ضعفِ هَذَا الحبِ والخوفِ، بتركِ بعضِ الواجبات وفعلِ بعض المحرماتِ فإنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ، فكلما فعلَ العبدُ الطاعةَ محبةً لله وخوفًا منه وتركَ المعصيةَ حبًّا لُه وخوفًا منه قِوي حبُّه لَه وخوفُه منه فيزيلُ ما في القلبِ من محبةِ غيرِه ومخافةِ غيرِه[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٣٣-١٠/١٣٦) باختصار.

أضرارُ العشق

ومن المعلوم أنَّهُ ليسَ فِي عشقِ الصورِ مصلحةٌ دينيةٌ وَلاَ دنيويةٌ بل مفسدتُه الدينيةِ والدنيويةِ أضعافَ أضعافَ ما يقدرُ فيه من المصلحة، وذَلِكَ من وجوهٍ:

أحدهما: الاشتغالُ بحبِّ المخلوقِ وذكرِه عن حبِّ الرَّبِّ تَعَالَى وذكره فلا يجتمعُ فِي القلبِ هَذَا وهَذَا إلا ويقرُّ أحدُهما الآخرَ ويكونُ السلطانُ والغلبةُ له.

الثاني: عذابُ قلبِه به، فإنَّ من أحبَّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به وَلاَ بدَّ كَمَا قِيْلَ:

فَما فِي الأرضِ أشقَى من محبٍّ ... وإنْ وجدَ الهوَى حلوَ المذاقِ
تَراهُ بَاكيًا فِي كلِّ حِينٍ ... مخافةَ فرقةٍ أو لاشتياقِ
فيَبْكِي إنْ نَأوا شوقًا إلَيْهِم ... وَيَبْكِي إن دنوا حذرَ الفراقِ
فتسخنُ عينُه عندَ الفراقِ ... وتسخنُ عينُه عندَ التَّلاقي

والعشقُ وإن استعذَبَه صاحبُه فهو أعظمُ من عذابِ القلبِ.

الثالثُ: أنَّ قلبَه أسيرٌ فِي قبضةِ غيرِه يسومه الهوان ولكن لكسرتِه لا يشعرُ بمصابِه قلبُه كعصفورٍ فِي كفِّ طفلٍ يسومها حياضُ الردَى، والطفلُ يلهو ويلعبُ.

الرابعُ: أنَّهُ يشتغلُ عن مصالحِ دينِه ودنياه، فليسَ شيءٌ أضيعَ لمصالحِ الدينِ والدُّنْيَا من عشقِ الصور، أما مصالحُ الدينِ فإنَّها منوطَةٌ بلم شعث القلبِ وإقبالِه عَلَى الله، وعشقُ الصورِ أعظمُ شيءٍ تشعيثًا وتشتيتًا له.

وأما مصالحُ الدُّنْيَا فهي تابعةٌ فِي الحقيقةِ لمصالحِ الدينِ فمن انفرطت عَلَيْهِ مصالحُ دينِه وضاعَت عَلَيْهِ فمصالحُ دنياه أضيعُ وأضيعُ.

الخامسُ: أنَّ آفاتِ الدُّنْيَا والآخرةِ أسرعُ إِلَى عشاق الصورِ، وإذَا بَعدَ القلبُ من الله طَرقتُه الآفاتُ وتولاه الشَّيْطَانُ من كلِّ ناحيةٍ واستولَى عَلَيْهِ ولم يدع أذى يمكنه إيصالُه إليه إلا أوصلَه.

السادسُ: أنَّهُ إذا تمكَّنَ من القلب واستحكَم وقويَ سلطانُه أفسدَ الذهنَ وأحدثَ الوسواسَ وربَّما ألحقَ صاحبَهُ بالمجانين الذين فسدت عقولُهم فلا ينتفعونَ بها.

السابعُ: فهو يُعمي عينَ القلبِ عن رؤيةِ مساوئ المحبوبِ وعيوبِه فلا تَرى العينُ ذلك، وَيَصمُّ أذنَه عن الإصغاءِ إِلَى العذلِ[1] فيه فلا تسمعُ الأذنُ ذَلِكَ والرغبات تسترُ العيوبَ فالراغبُ فِي الشيءِ لا يرى عيوبَه، حَتَّى إذا زالت رغبتُه فيه أبصرَ عيوبَه فشدةُ الرغبةِ غشاوةٌ عَلَى العينِ تمنعُ رؤيةَ الشيءِ عَلَى ما هو بِه[2].

---

(١) العذل: اللوم.

(٢) الداء والدواء لابن القيم (٢٤٥) وما بعدها باختصار.

محبة الزوجين

المحبةُ بَيْنَ الزوجين من أنواعِ الحبِّ المباحِ بل المشروعِ فلا يلامُ صاحبُهَا ما لم يتعد بها حدودَ الله، فمن الرجالِ من يعصي الله تبارك وتَعَالَى إرضاءً لزوجَتِه كمن يجمعُ المالَ من حلالٍ وحرامٍ وَلا يُبالي فكلُّ همَّهِ تحقيقُ مطالبِ الزوجةِ وكذَلِك المرأةُ الَّتِي تفرط فِي أوامرِ الله تَعَالَى لترضِي زوجَها فإذَا أمرَها بشيءٍ يغضبُ اللهَ أطاعَته وعصت ربَّها، كمن يأمرُ زوجَتَه بخلعِ النقابِ أو عدمِ ارتداءِ الحجابِ أو السَّهَرِ معه فِي أماكن يحرمُ الذهابُ إليها أو أن تشاهدَ وتسمعَ ما يغضبُ اللهَ، فتراهَا تطيعُه خوفًا وحبًّا لُه، وإن عصت ربَّها فهَذَا كلُّه من المحبةِ المذمومةِ الَّتِي تجعلُ صاحبَها مع القوم الفاسقين، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤] أما المحبةُ المحمودةُ بَيْنَ الزوجين فهي الَّتِي لا يتَعَدَّى بها الزوجان حدودَ وأوامرَ الله تَعَالَى وقد امتنَّ اللهُ بهذه النعمةِ- نعمةُ التزاوجِ – بَيْنَ الرجلِ والمرأةِ بقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

قالَ العلامةُ السعديُّ:

ومن آياتِه الدالةِ عَلَى رحمتِه وعنايتِه بعبادِه وحكمتِه العظيمةِ وعلمِه المحيطِ ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ تُناسِبكُم وتناسبونَهنَّ وتشاكلكم

وتشاكلونهن ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رُتِّبَ عَلَى الزواجِ من الأسبابِ الجالبةِ للمودةِ والرحمةِ فَحَصَّلَ بالزوجةِ الاستمتاعَ واللذةَ والمنفعةَ بوجودِ الأولادِ وتربيتهم والسكون إليها فلا تجدُ بَيْنَ أحدٍ فِي الغالبِ مثلَ ما بَيْنَ الزوجين من المودةِ والرحمةِ[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٣٩).

الْمَرَضُ الحادي والثلاثون: ضعفُ الغيرةِ لله

اعلم أنَّ أقوى النَّاسِ دينًا أعظمُهم غيرةً للهَ تَعَالَى، فقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ فِي صحيحيهما من حديثِ المغيرةَ بن شعبةَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ سعدُ بن عبادةَ: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربتَه بالسيفِ غير مصفح، فبلغ ذَلكِ رسَولَ الله ﷺ فقالَ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ وَالله لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أغْيَرُ مِنِّي ومِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَواحِشَ مَا ظَّهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَغَارُ وَالْمُؤمِنُ يَغَارُ وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**»(٢).

أما من ضعفَت غيرتُه لله فلا يغضب إذا انتهكَت محارمُهُ وخالفَ النَّاسُ أوامرَه، ولم يسعَ لتغييرِ المنكرِ ولو بقلبِه فقد تجاوزَ أدنى درجات الإيمانِ وليعلمَ أن قلبَه مريضٌ فضلاً عن أَنَّهُ معرضٌ للعنِ من الله تَعَالَى، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

أي: كَانَ لا ينهى أحدٌ منهم أحدًا عن ارتكابِ المآثمِ والمحارم ثُمَّ ذمَّهم عَلَى ذَلِكَ ليحذرَ أن يرتكبَ مثل الَّذِي ارتكبوه، فقالَ: ﴿لَبِئْسَ مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩).
(٢) أخرجه مسلم (٧٢٦١).

كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

وَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[2] وعَنْهُ ﷺ أَنَّه قَالَ: «**أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»[3].

فمحبُّ اللهَ ورسولَه يغارُ لله ولرسولِه عَلَى قدرِ محبتِه وإجلالِه، وإذا خلا قلبُه من الغيرةِ لله ولرسولِه فهو من المحبةِ أخلى وإن زعم أَنَّهُ من المحبين فكذبَ من ادَّعى محبةَ محبوبٍ من النَّاسِ وَهُوَ يَرى غيرَه ينتهِكُ حرمةَ محبوبِه وَيَسعَى فِي أذَاه ومساخطَه ويستهينُ بحقِّهِ ويستخف بأمرِه وَهُوَ لا يغارُ لذلك، بل قلبُه باردٌ فكيفَ يصحُ لعبدٍ أن يدَّعِي محبةَ الله وَهُوَ لا يغارُ لمحارمِهِ إذا انتهِكَت وَلاَ لحقوقِه إذا ضُيِّعَت وأقلُّ الأقسامِ أن يغارَ له من نفسِه وهواه وشيطانِه، فيغارُ لمحبوبِه من تفريطِه فِي حقِّه وارتكابِه لمعصيتِه.

وإذَا ترحلت هَذِهِ الغيرةُ من القلبِ ترحلت منه المحبةُ بل ترحلَ منه الدينُ، وإن بقيت فيه آثارُه وهذه الغِيرةُ هي أصلُ الجهادِ والأمرُ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ وهي الحائلةُ عَلَى ذلكَ، فإنْ خَلت من القلبِ لم يجاهد ولم يأمر بالمعروفِ ولم ينهَ عن المنكرِ، فإنَّه إنّما يأتي بذَلِكَ غيرةَ مِنه لربه، ولذَلِك جعلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علامةَ محبتِه ومحبوبيتِه الجهادَ فقالَ اللهُ

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤) وغيره.

تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤][1].

(١) ما بين النجمتين من روضة المحبين لابن القيم (٢٣٦).

الْمَرَضُ الثاني والثلاثون: الخوفُ من غيرِ الله

الخوفُ عبادةٌ قلبيةٌ لا تكونُ إلا لله وحده، وقد نَهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن خوفِ أولياءِ الشَّيْطَانِ وأمرَ بخوفِه وحده فقالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قالَ القرطبيُّ رحمه الله:

فالخائفُ من الله تَعَالَى هو أن يخافَ أن يعاقبَه إما فِي الدُّنْيَا وإما فِي الآخرةِ ولهَذا قِيْلَ ليسَ الخائفُ الَّذِي يبكي ويمسحُ عينيه، بل الخائفُ الَّذِي يتركُ ما يخافُ أن يُعذبَ عَلَيْه ففرضَ اللهُ تَعَالى عَلَى العبادِ أن يخافوه فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَ ﴿فَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ۝﴾ [النحل: ٥١] ومدحَ المؤمنين بالخوفِ فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (١) انتهى.

فعَلَى قدرِ إيمانِ العبدِ يكونُ خوفُه من الله وكلما ضعفَ إيمانُ العبدِ ضعفَ فِي قلبه الخوفُ من الله، فتجدُ خوفَه من المخلوقِ أكبرَ من خوفِه من خالقِه وهَذَا واضحٌ فِي أقوالِ وأفعالِ كثيرةٍ من المسلمين والمسلمات، فَترى الرجلَ ينافقُ رئيسَه فِي العملِ مخافةَ أن يعزلَه من عملِه وقد يحلقُ الشابُ لحيتَه خوفًا من همزِ النَّاسِ ولمزِهم إياه أو خوفًا من هجرِ الأصحابِ أو مَا أشبه ذلك، وترى الأختَ تريد أن ترتدي النقابَ ولكنَّها تخافُ من الأبِ أو الأمَّ أو كليهما، وقد يأمرَها الزوجُ بأشياءَ تغضبُ الله وهي تعلمُ ذلك، فتطيعُه خوفًا من أن يطلقَها فلا تجدُ من يعولها إِلَى غير

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٩٢).

ذَلِكَ من المخالفات الشَّرْعية الَّتِي يرتكبُها المسلمون خوفًا من النَّاس.

أنواعُ الخوفِ

١- الخوفُ من اللهِ.

٢- الخوفُ من غيرِ الله.

أولاً: الخوفُ من اللهِ:

يكونُ محمودًا ويكونُ غير محمودٍ فالمحمودُ ما كانت غايتُه أن يحولَ بينَكَ وبينَ معصيةِ الله بحيثُ يحملكَ عَلَى فعلِ الواجباتِ وتركِ المحرماتِ فإذا حصلتَ هَذِهِ الغايةُ سكنَ القلبُ واطمأنَّ وغلبَ عَلَيْهِ الفرحُ بنعمةِ الله والرجاءُ لثوابِه، وغيرَ المحمودِ ما يحملُ العبدَ عَلَى اليأسِ من روحِ الله والقنوطِ، وحينئذٍ يتحسرُ العبدُ وينكمشُ وربما يتمادَى فِي المعصيةِ لقوةِ يأسِهِ.

ثانيًا: الخوفُ من غيرِ اللهِ:

النوعُ الأولُ: خوفٌ طبيعيٌّ، كخوفِ الإنسانِ من السبعِ والنارِ والغرقِ، وهَذَا لا يلامُ عَلَيْهِ العبدُ قَالَ تَعَالَى عن موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسلامُ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، ولكن إذا كَانَ هَذَا الخوفُ سببًا لتركِ واجبٍ أو فعلِ محرمٍ كَانَ حرامًا كَمَا تقدَّمَ[١].

النوعُ الثَّاني: خوفُ العبادةِ والتذللِ والتعظيمِ والخضوعِ، وَهُوَ ما يُسمَّى بخوفِ السَّرَّ وهَذَا لا يصلحُ إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فمن أشركَ فيه

---

(١) انظر شرح الأصول الثلاثة لابن العثيمين.

مع الله غيرَه فهو مشركٌ شركًا أكبرَ، وذَلِكَ مثل من خافَ من الأصنامِ أو الأمواتِ أو من يزعمون أنَّهم أولياء يعتقدون نفعَهم وضرَّهُم، كَمَا يفعله بعضُ عُبَّادِ القبورِ يخافُ صاحبَ القبرِ أكثرَ مما يخافُ الله[١].

(١) شرح كتاب التوحيد (١٧/٢).

الْمَرَض الثالث والثلاثون
التوكل عَلَى غير الله

مَعنى التَّوكلِ: إظهارُ العجزِ والاعتمادِ عَلَى غيرِكَ، والاسمُ: التُّكلاَن واتَّكَلتُ عَلى فلانٍ فِي أَمْرِي: إذا اعتمدتُهُ[1].

من أسماءِ الله تَعَالَى الوكيلُ: وَهُوَ المقيمُ الكفيلُ بأرزاقِ العبادِ، وحقيقتُهُ أَنَّهُ يستقلُ بأمر الموكولِ إليهِ، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٢].

قالَ أبو إسحاقَ: الوكيلُ فِي صفةِ الله تَعَالَى: الَّذِي توكَّلَ بالقيام بجميعِ ما خلقَ وَقَالَ بعضُهم: الوكيلُ الكفيلُ ونعم الكفيلُ بأرزاقِنا، وَقَالَ فِي قَولِهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ كَافينَا اللهُ ونعم الكافِي، كقولِك: رازقنَا اللهُ ونعم الرازقُ.

المتوكلُ عَلَى الله: الَّذِي يعلمُ أن اللهَ كافلُ رزقِه وأمرِه، فيركن إليهِ وحدَه وَلاَ يتوكلُ عَلَى غيرِه.

ووكلتُ أمرِي إِلَى فلانٍ: أي ألجأته إليه واعتمدتُ فيه عَلَيْهِ ووكَّلَ فلانٌ فلانًا إذا استكفَاه أمره ثقةً بكفايتِه أو عجزًا عن القيام بأمر نفسِه[2] .

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣] أي: وعَلَى الله فتوكَّلُوا لا عَلَى غيرِه فهو من أجمعِ أنواعِ العبادةِ وأعظمِهَا لما يَنشَأُ

(١) لسان العرب (٩/٣٩٣).
(٢) المصدر السابق- باختصار.

عَنْهُ من الأعمالِ الصالحةِ فإنَّه إذَا اعتمدَ عَلَى الله فِي جميعِ أمورِه الدينيَّة والدنيويَّةِ دونَ كل ما سواهُ صحَّ إخلاصُهُ ومعاملتُهُ مع الله تَعَالَى.

فهو من أعظمِ منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ فلا يحصلُ كمالُ التَّوحيدِ بأنواعِهِ الثلاثةِ[1] إلا بكمالِ التَّوكلِ عَلَى الله كَمَا فِي هَذِهِ الآيةِ، وَكَما قَالَ تعالَى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾ [يونس: ٨٤] وقولَه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٩] والآياتُ فِي الأمرِ به كثيرةٌ جدًّا.

وَقَالَ ابنُ القيمِ فِي معنى الآيةِ: فجعلَ التوكلَ عَلَى الله شرطًا في الإيمانِ فدَلَّ عَلَى انتفاءِ الإيمانِ عند انتفائِه، وفي الآيةِ الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ فجعلَ دليلَ صحةِ الإسلامِ التَّوكُّلَ وكلما قَوِيَ تَوكُّلُ العبدِ كَانَ إيمانه أَقْوى وَإذَا ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التَّوكُل، وإذا كَانَ التوكلُ ضعيفًا كَانَ دليلاً عَلى ضعفِ الإيمانِ وَلاَ بد، واللهُ تباركَ وتَعَالَى يَجمعُ بَيْنَ التوكلِ والعبادةِ وبين التوكلِ والإيمانِ وبين التوكلِ والتقوَى وبين التوكلِ والإسلامِ وبين التوكلِ والهدايةِ.

فظهرَ أنَّ التوكلَ أصلٌ لجميعِ مقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، ولجميع أعمالِ الإسلامِ وأنَّ منزلتَه منها كمنزلةِ الجسدِ من الرأسِ، فكما لا يقومُ الرأسُ إلاَّ عَلَى البدنِ فكذَلِك لا يقومُ الإيمانُ ومقاماتُه وأعمالُه إلا عَلَى

---

(١) أنواع التوحيد ١- توحيد الألوهية، ٢- توحيد الربوبية. ٣- توحيد الأسماء والصفات.

ساقِ التَّوكُّلِ[١].

قالَ شيخُ الإسلامِ[٢] رحمهُ الله:

وما رَجَا أحدٌ مخلوقًا أو تَوكَلَ عَلَيْهِ إلا خابَ ظنُّهُ، فيهِ فإنَّه مشركٌ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

الأخذُ بالأسبابِ لا ينافي حسنَ التوكلِ بل هو من الدِّينِ:

قالَ العلامةُ ابنُ عثيمين رحمهَ اللهُ:

التوكلُ: هو الاعتمادُ عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي حصولِ المطلوبِ ودفعِ المكروهِ مع الثقةِ به، وفعلُ الأسبابِ المأذون فِيهَا... وَلاَ بد من أَمرين:

الأوَّلُ: أن يكونَ الاعتمادُ عَلَى الله اعتمادًا صادقًا حقيقًا.

الثَّاني: فعلُ الأسبابِ المأذونِ فِيها، فمن جعلَ أكثرَ اعتمادِه عَلَى الأسبابِ نَقُصَ تَوكُّلُهُ عَلَى الله ويكونُ قادحًا فِي كفايةِ الله، فكأنَّه جعلَ السببَ وحدَه هو العمدةُ فيما يصبُو إليه من حصولِ المطلوبِ وزوالِ المكروهِ، ومن جعلَ اعتمادَه عَلَى الله ملغيًّا للأسبابِ فقد طعنَ فِي حكمةِ الله، لأنَّ الله جعلَ لكل شيءٍ سببًا، فمن اعتمدَ عَلى الله اعتمادًا مجردًا، كَانَ قادحًا فِي حكمةِ الله؛ لأنَّ الله حكيمٌ يربطُ الأسبابَ بمسبباتِها كمن يعتمدُ عَلى الله فِي حصولِه عَلَى الولد وَهُوَ لا يتزوج، والنَّبيُّ ﷺ أعظمُ المتوكلينَ ومع ذَلِكَ كَانَ يأخذُ بالأسبابِ، فكان يأخذُ الزادَ فِي السَّفرِ، ولما خرجَ إلى

---

(١) فتح المجيد شرح آل الشيخ (٣٨٢، ٣٨٣) باختصار.

(٢) المصدر السابق.

أُحدٍ ظَاهرَ بَيْنَ درعين، أي: لبس درعين اثنين[١] ولما خرجَ مهاجرًا أخذَ من يدلّهُ الطَّريقَ [٢]، ولم يقلْ سأذهبُ مهاجرًا وأتوكلُ عَلَى الله ولن أصطحبَ معي من يدلّني الطَّريقَ، وكان ﷺ يتقي الحرَّ والبردَ ولم ينقصْ ذَلِك من توكلِهِ، ويذكر عن عمرَ رضي الله عنه أن قَدمَ ناسٌ من أهلِ اليمن إلَى الحجَّ بلا زادٍ، فجيء بهم إلَى عمرَ فَسألَهم فقالُوا: نحنُ المتوكَّلُون عَلَى الله، فقالَ: لستُم المتوكّلين، بل أنتم المتواكِلُون.

والتوكلُ نصفُ الدينِ، ولهَذَا نقولُ فِي صلاتنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥] فنطلبُ من الله العونَ اعتمادًا عَلَيْه سُبْحَانَهُ بأنه سيعيننا عَلَى عبادتِه وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ﴾ [هود: ١٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وَلاَ يمكن تحقيقُ العبادةِ إلاَّ بالتوكلِ، لأنَّ الإنسانَ لو وُكِّلَ إلَى نفسِه وُكِّلَ إلَى ضعفٍ وعجزٍ ولم يتمكن من القيامِ بالعبادةِ فهو حين يعبد اللهَ يشعرُ أَنَّهُ متوكلٌ عَلَى الله فينالُ بذَلِك أجرَ العبادةِ وأجرَ التوكلِ[٣].

التوكلُ ينقسم إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأولُ: توكلُ عبادةٍ وخضوعٍ، وَهُوَ الاعتمادُ المطلقُ عَلَى مَن توكَّلَ عَلَيْهِ بحيثُ يعتقدُ أنَّ بيدِهِ جلبَ النفعِ ودفعَ الضرَّ فيعتمدُ عَلَيْهِ اعتمادًا كاملاً مع شعورِه بافتقارِه إليه، فهَذَا يَجبُ إخلاصُهُ لله تَعَالَى، ومن صرَفَهُ لغيرِ الله فهو مشركٌ شركًا أكبرَ كالذين يعتمدونَ عَلَى الصالحين من

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٥٩٠) وابن ماجه (٢٨٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٣).
(٣) القول المقيد على كتاب التوحيد (٢/ ٨٢).

الأمواتِ والغائبين، وهَذَا لا يكونُ إلا ممن يعتقدُ أنَّ لهؤلاء تصرفًا خفيًّا في الكونِ فيعتمدُ عليهم في جلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِ.

الثَّاني: الاعتمادُ عَلى شخصٍ فِي رزقِه ومعاشِه وغير ذلك، وهَذا من الشَّرْكِ الأصغرِ، وَقَالَ بعضُهم من الشَّرْكِ الخفيِّ مثل اعتمادُ كثيرٍ من النَّاسِ عَلى وظيفتِه في حصولِ رزقِه ولهذَا تجدُ الإنسانَ يشعرُ من نفسِه أَنَّهُ معتمدٌ عَلَى هذَا اعتمادَ افتقارٍ فتجدُ فِي نفسِهِ من المحاباةِ لمن يكونُ الرزقُ عِنْدَهُ ما هو ظاهرٌ فهو لم يعتقد أَنَّهُ مجردُ سببٍ بل جعله فوقَ السببِ.

الثَّالثُ: أن يعتمدَ عَلَى شخصٍ فيما فُوِّضَ إليه التصرفُ فِيه، كَما لو وكَّلت شخصًا فِي بيع شيء أو شرائه، وهَذا لا شيءَ فيه؛ لأَنَّهُ اعتمدَ عَلَيْهِ وَهُوَ يشعرُ أنَّ المنزلةَ العليا لَه فوقَه، لأَنَّه جعلَه نائبًا عنه،وقد وكَّلَ النَّبِيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ أن يذبحَ ما بَقِي من هَديه[١]، ووكَّلَ أَبَا هُرَيْرَةَ عَلَى الصدقةِ[٢] ، ووكَّلَ عروةَ بن الجعدِ أنْ يشتَرِيَ له أضحيةً[٣] وهَذَا بخلافِ القسمِ الثاني، الَّذِي يُشعِرُ بالحاجةِ إِلَى ذَلِك وَيَرى اعتمادَه عَلَى المتوكَّلِ عَلَيْهِ اعتمادَ افتقارٍ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١١) مع الفتح معلقًا (٤/٥٦٩) وقال الحافظ: ووصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤٣).

(٤) انظر القول المفيد.

المرَضُ الرابعُ والثلاثون
ضعفُ الإيمانِ بالقدرِ

الإيمانُ بالقدرِ ركنٌ من أركانِ الإيمانِ وهَذَا ثابتٌ بالكتابِ والسنةِ وإجماعِ الأمةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩] والآياتُ فِي هَذَا البابِ كثيرةٌ جدًا.

وفي حديثِ جبريلَ المشهورِ عندما سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ مَا الإيمانُ؟ فَقالَ ص: «**أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلاكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيومِ الآخرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّهِ**»[1].

وَقَالَ ﷺ في حديثِ ابن عباس: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لَمْ يَنْفَعوكَ إلا بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»[2].

الإيمانُ بالقدرِ يتضمنُ أربعةَ أمورٍ:

الأولُ: الإيمانُ بأنّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ بكلِّ شيءٍ جملةً وتفصيلاً أزلاً وَأَبدًا سواء كَانَ ذَلِكَ مما يتعلقُ بأفعالِه أو بأفعالِ عبادِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨) وغيره.
(٢) صحيح تقدم تخريجه.

الثَّاني: الإيمانُ بأنَّ الله كَتبَ ذَلِكَ فِي اللوح المحفوظِ وفي هَذين الأمرين يَقوُلُ الله تعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وفي صحيح مسلمٍ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رَضي اللهُ عنهما قَالَ سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَاديرَ الخلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنةٍ قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الماءِ»(١)

الثالثُ: الإيمانُ بأنَّ جميعَ الكائنات لا تكونُ إلا بمشيئةِ الله تَعَالَى، سواء كانت مما يتعلقُ بفعلِه أم مما يتعلقُ بفعلِ المخلوقين، قَالَ تعَالَى فيما يتعلقُ بفعلِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وَقَالَ: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٧] وَقَالَ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

الرَّابعُ: الأيمانُ بأنَّ جميعَ الكائنات مخلوقةٌ لله تَعَالَى بذواتِها وصفاتِها وحركاتِها قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢] وَقَالَ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

والإيمانُ بالقدرِ عَلَى ما وَصفنَا لا يُنَافي أن تَكونَ للعبدِ مشيئةٌ فِي أفعالِه الاختيارية وقدرةٌ عليها، لأن الشَّرعَ والواقعَ دالان عَلَى إثباتِ ذَلِك لَهُ.

أَمَّ الشَّرْعُ: فقد قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي المشيئةِ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩] وَقَالَ ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٦، ٤٩٤٧).

وَقَالَ فِي القدرةِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ [التغابن: ١٦].

وَأَمَّا الواقع: فإنَّ كلَّ إنسانٍ يعلمُ أنَّ لَهُ مشيئةً وقدرةً بهما يفعلُ وبهما يتركُ ويفرقُ بَيْنَ ما يقعُ بإرادتِه كالمشي وما يقعُ بغيرِ إرادتِه كالارتعاشِ، ولكنَّ مشيئةَ العبدِ وقدرتَه واقعتان بمشيئةِ الله تَعَالَى وقدرتِه لقولِه تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

ولأنَّ الكونَ كلَّه ملكٌ لله تَعَالَى فَلا يكونُ فِي ملكِه شيءٌ بدون علمِه ومشيئتِه.

والإيمانُ بالقدرِ عَلى ما وصفنَا لا يمنحُ العبدَ حجةً عَلَى ما تركَ من الواجبات أو فعلَ من المعاصي، وعَلَى هَذَا فاحتجاجُه به باطلٌ من وجوهٍ:

١- قولُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ولو كَانَ لهم حجةٌ بالقدرِ ما أذاقَهم الله بأسه.

٢- قولهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] ولو كَانَ القدرُ حجةً للمخالفين لم تنتفِ بإرسال الرسل؛ لأنَّ المخالفةَ بعد إرسالِهم واقعةٌ بقدرِ الله تَعَالَى.

٣- ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ واللفظُ للبخاريِّ عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ أَوْ مِنْ الجنَّةِ» فقالَ رجلٌ من القوم ألا نتكلُ يا رسُولَ الله؟ قَالَ: «لاَ، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ» ثُمَّ قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾[الليل: ٥] وفي لفظٍ لمسلمٍ «فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(١) فأمرَ النَّبِيُّ ﷺ بالعملِ ونَهَى عن الاتِّكَالِ عَلَى القدرِ.

٤- أنَّ الله تَعَالَى أمرَ العبدَ وَنَهَاه ولم يكلْفهُ إلا ما يستطيعُ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وَقَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ولو كَانَ العبدُ مُجبرًا عَلَى الفعلِ لو كَانَ مكلفًا بما لا يستطيعُ الخلاصَ منه، وهَذَا باطلٌ ولذَلِك إذا وقعت منه المعصيةُ بجهلٍ أو نسيانٍ أو إكراهٍ فلا إثمَ عَلَيْهِ لأَنَّهُ معذورٌ.

٥- أنَّ قدرَ الله تَعَالَى سرٌّ مكتومٌ لا يُعلمُ بِهِ إلا بعد وقوعِ المقدورِ، وإرادَةُ العبدِ لما يفعَلُهُ سابقةٌ عَلَى فعلِهِ، فتكونُ إرادتُه الفعلَ غير مبنيةٍ عَلَى علم منه بقدر الله وحينئذ تَنتَفِي حجتُه إذْ لا حجةَ للمرءِ فِيما لا يعلمُ.

٦- أننا نرى الإنسانَ يحرصُ عَلَى ما يلائمه من أمورِ دنياه حَتَّى يدركه وَلا يعدلُ عَنْهُ إِلَى ما لا يلائمه ثُمَّ يحتجُّ عَلَى عدولِهِ بالقدرِ، فلماذا يعدلُ عمَّا ينفعُهُ في أمر دينِه إِلَى ما يضرُّهُ ثُمَّ يحتجُّ بالقدرِ؟ أفليسَ شأنُ الأمَرين واحدًا؟؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٧).

وإليكَ مثالاً يوضحُ ذلكَ: لو كَانَ بَيْنَ يدي الإنسانِ طريقان أحدهما يَنتهي به إِلَى بلدٍ كلّها فَوضى وقتل ونهب وانتهاك للأعراض وخوف وجوع، والثاني ينتهي به إِلَى بلد كلها نظام وأمن مستتب وعيش رغيد واحترام للنفوس والأعراض والأموال فأي الطريقين يسلك؟ أَنَّهُ سيسلك الطريق الثاني الَّذي ينتهي به إِلَى بلدِ النظامِ والأمنِ وَلاَ يمكنُ لأي عاقلٍ أبدًا أن يَسلُكَ طريقَ بلدِ الفوضَى والخوفِ ويحتجَّ بالقدرِ، فلماذا يسلكُ فِي أمرِ الآخرةِ طريقَ النَّارِ دونَ الجنةِ، وَيحتجُّ بالقدرِ؟

مثالٌ آخر: نَرى المريضَ يُؤمرُ بالدَّواءِ فيشربُهُ ونفسُهُ لا تشتَهِيه ويُنْهَى عن الطعامِ الَّذي يضرُّه فيتركَهُ ونفسُهُ تشتَهِيه، كل ذَلِك طلبًا للشفاءِ والسلامةِ، وَلاَ يمكنُ أن يمتنعَ عن شربِ الدواءِ أو يأكل الطعامَ الَّذِي يضرُّه ويحتجُّ بالقدر، فلماذا يتركُ الإنسانُ ما أمرَ اللهُ ورسولُه أو يفعلُ ما نَهى اللهُ ورسولُه ثُمَّ يَحتجُّ بالقدرِ؟!

٧- أنَّ المحتجَ بالقدرِ عَلَى ما تركَهُ من الواجباتِ أو فعلَهُ من المعاصِي، لو اعتدَى عَلَيْه شخصٌ فأخذَ مالَه أو انتهكَ حرمتَه ثُمَّ احتجَّ بالقدرِ، وَقَالَ: لا تلمني فإنَّ اعتدائي كَانَ بقدرِ الله، لم يقبل حجته فكيف لا يقبلُ الاحتجاجَ فِي اعتداء غيره عَلَيْه، ويحتجُّ بِه لنفسِهِ فِي اعتدائِه عَلَى حقِّ الله تَعَالَى [١].

(١) شرح الأصول الثلاثة (٧٩) وما بعدها باختصار.

الْمرَضُ الخامسُ والثلاثون: حبُ البدعةِ

البدعةُ فِي اللغةِ: بَدَعَ الشَّيءَ يَبْدَعُهُ وَابتَدَعَهُ: أَنْشَأَهُ وَبدَأَهُ[١].

والبديعُ والبدعُ: الشيءُ يكونُ أولاً، كَمَا فِي التنزيلِ ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

البدعةُ شرعًا: هي مَا لم يشرعُه الله ورسولُه وَهُوَ ما لم يأمرْ بِهِ أمرَ إيجابٍ وَلاَ استحبابٍ[٢].

قالَ شيخُ الإسلام [٣]:

أهلُ العباداتِ البدعيَّةِ يُزَيِّنُ لَهم الشَّيْطَانُ تلكَ العباداتِ، ويُبغضُ إِلَيْهم السبلَ الشَّرْعيَّةَ حَتَّى يبغضَهم فِي العلمِ والقُرْآنِ والحديثِ، فلا يحبونَ سماعَ القُرْآنِ والحديثِ وَلاَ ذكرَهُ وقد يبغضُ إِلَيْهِم حَتَّى الكتابَ فلا يحبونَ كتابًا وَلاَ من معه كتابٌ، ولو كَانَ مصحفًا أو حديثًا.

قالَ عبدُ الله التَّستري: يا معشرَ الصوفيةِ لا تفارقُوا السوادَ عَلَى البياضِ فما فارقَ أَحدٌ السَّوادَ على البياضِ إلا تَزَندَقَ.

وَقَالَ الجنيدُ: عِلْمُنَا هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى الكتابِ والسنةِ فمن لم يقرأ القُرْآنَ ويكتب الحديثَ لا يُقْتدى به فِي هَذَا الشأنِ اهـ.

وكثيرٌ من هؤلاء ينفرُ ممن يذكرُ الشَّرْعَ أو القُرْآنَ أو يكونُ معه كتابٌ أو يكتبُ وذَلِك لأَنَّهم استشعروا أنَّ هَذَا الجنسَ فيه ما يخالفُ طريقَهم

---

(١) لسان العرب (١/٣٥٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/١٠٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٤١٢-٤١٣).

فصارت شياطينُهم تهرِّبَهُم من هَذَا كَمَا يهرِّبُ اليهوديُّ والنصرانيُّ ابنَهُ أن يسمعَ كلامَ المسلمين حَتَّى لا يتغيرَ اعتقادُه فِي دينِه وكما كَان قومُ نوحٍ يجعلونَ أصابعَهم فِي آذانهم ويستغشون ثيابَهم لئلا يَسمعوا كَلامَه وَلا يَروهُ، وقَالَ تَعَالَى عن المشركين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] وَقَالَ تعَالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] وَمَا أرغب النَّاسِ فِي السَّماعِ البدعيَّ سماعُ المعازفِ وما أزهدهُم فِي السَّماعِ الشَّرْعيَّ آياتُ الله تَعَالَى.

وكان مما زيَّنَ لهم طريقَهُم أن وجدُوا كثيرًا من المشتغلينَ بالعلمِ والكتبِ معرضين عن عبادةِ الله تَعَالَى وسلوكِ سبيلِه إما اشتغالاً بالدُّنْيَا وإما بالمعاصِي وإما جهلاً وتكذيبًا بما يحصل لأهل التألُهِ والعبادةِ، فصار وجودُ هؤلاء مما ينفرهم وصار بَيْنَ الفريقين نوعٌ من التباغضِ.. إِلَى أن قَالَ: فَمنهم من يظنُّ أَنَّهُ يُلقَّنُ القُرْآنَ بلا تَلْقِينٍ، ويحكون أن شخصًا حَصَلَ له ذلك، وهَذَا كذبٌ نعم، قد يكونُ سمعَ آياتِ الله فلما صَفَّى نَفْسَهُ تذكرَها فتَلاهَا فإنَّ الرياضةَ تصقلُ النفسَ فيذكر أشياءَ كَانَ نسيَهَا ويقولُ بعضُهم أو يَحكي بعضُهم قَالَ: أخذُوا عِلمَهم ميتًا عن ميتٍ وأخذنَا علمنا عن الحيَّ الَّذِي لا يموتُ وهَذَا يقعُ لكن منهم من يظنُّ أن ما يلقى إليه من خطابٍ أو خاطرٍ هو من الله تَعَالَى بلا واسطةٍ، وقد يكونُ من الشَّيطَان وليسَ عندَهم فرقانٌ يفرقُ بَيْنَ الرحمانيَّ والشَّيطَانَّي فإِنَّ الفرقَ الَّذي لا يخطئ هو القُرْآنُ والسنةُ، فما وافقَ الكتابَ والسنةَ فهو حقٌ وما خالفَ ذَلِك فهو خطأٌ انتهى.

لابدَّ أن يكونَ القدوةُ فِي العبادةِ والمبينُ لها رسولَ الله ﷺ كَمَا قَالَ اللهُ

تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قالَ الإمامُ أحمدُ: نظرتُ فِي المصحفِ فوجدتُ طاعةَ الرَّسولِ ﷺ في ثلاثةٍ وثلاثين موضعًا ثُمَّ جعلَ يتلُو ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وَقَالَ ص: «**مَنْ عَمِلَ عَملاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)].

وفي روايةٍ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[(٢)].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمَهُ اللهُ:

فالثوابُ عَلَى ما جاءَ به الرسولُ والنصرةُ لمن نصرَهُ والسعادةُ لمن اتَّبعهُ وصلوات الله وملائكتِه عَلَى المؤمنينَ بِه والمعلمين للناسِ دينَهُ والحقُّ يدورُ معه حيثما دارَ، وأعلمُ الخلقِ بالخلقِ واتبعهم له أعلمهم بسنته وأتبعهم لها وكلُّ قولٍ خالفَ قولَه، فهو إمَّا دينٌ منسوخٌ وإمَّا دينٌ مُبَدلٌ لَم يُشَرَّعُ قَطْ[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨-١٧١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧).

(٣) من الاعتصام بالكتاب والسنة جمع وترتيب أبي الفضل عبد السلام (٨١).

ذمُّ البدع والمبتدعين وسوءُ منقلبِ أصحابها

اعلم أنَّ الشَّريعةَ جاءت كاملةً لا تحتملُ الزيادةَ وَلاَ النقصانَ؛ لأنَّ اللهَ تعَالَى قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي حديثِ العرباضِ بن ساريةَ: وعظنَا رسولُ الله ﷺ موعظةً ذرفَت منها الأعينُ ووجلَت منها القلوبُ فقلنا: يا رسولَ الله إنَّ هَذَا موعظةُ مودعٍ، فما تعد إلينا؟ قَالَ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُم بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ المهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[١].

وثبت أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يمت حَتَّى أَتَى ببيانِ جميعِ ما يحتاجُ إليه فِي أمرِ الدين والدُّنْيَا وهَذَا لا مخالفَ عَلَيْه من أهلِ السنةِ.

فإن كَانَ كذَلِكَ فالمبتدعُ إِنَّمَا محصولُ قولِه بلسانِ حالِه أو مقالِه:

إنَّ الشريعةَ لم تتم وإنَّه بَقِي منها أشياءُ يجبُ أن يستحبَّ استدراكُها لأنَّه لو كَانَ معتقدًا لكمالِها وتمامِها من كلِّ وجهِ لم يبتدعْ وَلاَ استدرَك عليهَا وقائلُ هَذَا ضالٌ عن الصراطِ المستقيمِ.

قالَ ابنُ الماجشون: سمعتُ مالكًا يقولُ:

من ابتدعَ فِي الإسلامِ بدعةً يراها حسنةً فقد زَعِمَ أن محمدًا ﷺ خانَ

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٤٣) وصحيح الترمذي (٤٦٠٧) ومسند الإمام أحمد (١٢٧/٤).

الرسالةَ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] فَما لَم يكن يومئذٍ دِينًا فلا يكون اليومَ دينًا.

المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع.

لأنَّ الشارعَ وضعَ الشرائعَ وألزمَ الخلقَ الجريَ عَلَى سننِها وصارَ هو المنفردُ بذَلِكَ لأنّهُ حكمٌ بَيْنَ الخلقِ فيما كانُوا فيه يختلفون وإلا فلو كَانَ التشريعُ من مدركات الخلقِ لم تنزل الشرائعُ ولم يبقَ الخلافُ بَيْنَ النَّاسِ وَلاَ احتيجَ إِلَى بعثِ الرسلِ عليهم السلام.

هَذَا الَّذِي ابتدعَ فِي دينِ الله قد صيَّرَ نفسَه نظيرًا ومضاهيًا للشارعِ، حيثُ شرَّعَ مع الشارعِ وفتحَ للاختلافِ بابًا وردَّ قصدَ الشارعِ فِي الانفرادِ بالتشريعِ وكَفَى بذلك.

المبتدعُ متبعٌ لهواه:

لأنَّ العقلَ إذا لم يكن مُتبعًا للشرعِ لم يبقَ له إلا الهوى والشهوة، وأنت تعلمُ ما في اتباعِ الهوى وأنَّه ضلالٌ.

أَلا تَرى قولَ الله تعَالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فحصرَ الحكمُ فِي أمرين لا ثالثَ لهما عنده، وَهُوَ الحقُّ والهوى وعزلُ العقلِ مجردًا إذ لا يمكن فِي العادةِ إلا ذلك.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] والمبتدعُ قدَّمَ هوى نفسِه عَلَى هدَى ربِّهِ فكانَ أضلَ النَّاسِ، وَهُوَ يظنُّ أَنَّهُ عَلَى هُدَى.

عَن ابن عباسٍ فِي قوله تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قَالَ: تبيضُّ وُجُوهُ أهلِ السنةِ وتسودُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ.

البدعةُ أحبُ إلى الشَّيْطَانِ من المعصيةِ:

قالَ طائفةٌ من السَّلفِ- منهم الثوريُّ- البدعةُ أحبُّ إِلَى إبليسَ من المعصيةِ؛ لأنَّ المعصيةَ يتابُ منها والبدعةُ لا يتابُ منها وهَذَا معنى ما رُويَ عن طائفةٍ أنَّهم قالُوا: إنَّ الله حجزَ التوبةَ عَلَى كل صاحبِ بدعةٍ بمعنى أَنَّهُ لا يتوبُ منها لأنَّه يحسبُ أنَّهُ عَلَى هُدى ولو تابَ لتابَ اللهُ عَلَيْهِ كَمَا يتوبُ عَلَى الكافرِ [(١)].

(١) هذا الباب ملتقطٌ من الاعتصام للإمام الشاطبي (١/ ٦١) وما بعدها باختصار وتصرف.

حكمٌ ومواعظُ

أيها المشغولُ بالشهوات الفانيات، متى تستعدُ للمماتِ الآتِ؟ حتَّى متى لا تجتهدُ فِي لحاقِ القوافلِ الماضيات؟ أتطمعُ وأنت رهينُ الوسادِ فِي لحاقِ السادات؟ هيهاتَ هيهاتَ آملاً فِي زعمِه اللذات احذر هجومَ هازمِ اللذات احذر مكائدَه فهي كوامن فِي عدة الأنفاس واللحظات:

تَمضي حلاوةَ ما أخفيتَ وبعدها تَبقي عليك مرارةُ التَّبعات
يَا حسرةَ العاصين يومَ معادِهم لو أنَّهم سِيقُوا إِلَى الجنات
لَو لم يكن إلا الحياءُ من الَّذي سترَ العيوبَ لأكثرُوا الحسرات

يَا من صحيفتُه بالذُّنُوبِ قد حُفَّت وموازينُه بكثرةِ الذُّنُوبِ قد خُفَّت أما رأيتَ أكفاءَ عن مطامعِها كُفّت؟ أما رأيتَ عرائسَ آحادٍ إِلَى اللحودِ قد زُفَّت؟ أما عاينتَ أبدانَ المترفين وقد أدرجت فِي الأكفانِ وَلُفَّت؟ أما عاينت طورَ الأجسامِ فِي الأرحامِ؟ ومتى تنتبهُ لخلاصِ نفسكِ أيها الناعسُ؟ متى تعتبرُ بربعِ غيرِك الدارس؟ أينَ الأكاسرُ الشجعان الفوارسُ؟ وأين المنعمون بالجواريِ والظباء الخنَّسِ الكوانس؟ أين المتكبرون ذَوو الوجوه العوابس؟ أين من اعتادَ سعةَ القصور؟ حُبْسَ فِي القبورِ فِي أضيقِ المحابسِ أين الرافلُ فِي أثوابِه عري فِي ترابِه عَن الملابسِ؟ أين الغافلُ فِي أملِه وأهلِه عن أجلِه؟ سلبتهُ أكفُّ الخالسِ أين جامعُ الأموالِ؟ سلب المحروس وهلك الحارس! حقٌّ لمن علمَ مكرَ الدُّنْيَا أن يهجرَها ولمن جَهِلَ نفسَه أن يزجرَها ولمن تحققَ نَقلته أن يذكرَها، ولمن غُمر بالنَّعماءِ أن يشكرَها ولمن دُعي إِلَى دارِ السَّلامِ أن يقطعَ مفاوزَ

الهوى ليحضرها[١].

اللهمَّ عاملنَا بلطفِكَ وتداركنَا بعفوِكَ

عبادَ الله! ما أشرفَ الأوقاتِ وقد ضيعتموهَا، وما أجهلَ النفوسِ وقد أطعتموهَا، وما أدقَّ السؤالِ عن الأموالِ فانظروا كيف جمعتموهَا وما أحفظَ الصُّحفِ بالأعمالِ فتدبَرُوا ما أودعتمُوهَا قبلَ الرحيلِ عن القليلِ والمناقشةِ عن النقيرِ والفتيلِ قبل أن تنزلوا بطونَ اللحودِ وتصيروا طعامًا للدودِ فِي بيتٍ بابُهُ مسدودٌ ولو قِيْلَ فيه للعاصِي: ما تختار لقال: أعود وَلاَ أعود:

أينَ أهلُ الديارِ من قوم نـوح ... ثُم عادٍ مِن بعـدهم وثمـود
بينما القومُ فِي النمارقِ والاستبرقِ ... أفضت إِلى الترابِ الخـدود
وصحيحٌ أضحى يعودُ مريضًـا ... وَهُوَ أدنى للموتِ ممن يعُود[٢]

فائدةٌ:

قد أجمعَ السائرون إِلَى الله أنَّ القلوبَ لا تُعطى مُنَاها حَتَّى تصل إِلَى مولاها، وَلاَ تصل إِلَى مولاهَا حَتَّى تكونَ صحيحةً سليمةً وَلا تكونُ صحيحةً سليمةً حَتَى ينقلبَ داؤُها فيصيرُ نفسُهُ دواءَهَا وَلا يصحُّ لها ذَلِكَ إلا بمخالفةِ هواهَا فهواهَا مرضُهَا وشِفَاهَا مخالفتُهُ فإن استحكم المرضُ قُتِلَ أو كَادَ[٣].

---

(١) الكبائر للإمام الذهبي (١٨٦، ١٨٧).
(٢) المصدر السابق.
(٣) الداء والدواء (٩٥).

فصلٌ نافعٌ جدًّا عظيمُ النفع للسالِكِ

يُوصِلُه عن قريبٍ، ويسيره بأخلاقِه الَّتِي لا يُمكنهُ إزالتُها، فإنَّ أصعبَ ما عَلَى الطبيعةِ الإنسانيةِ تغييرُ الأخلاقِ الَّتِي طبعَت النفوسُ عَليهَا وأصحابُ الرياضات الصعبةِ والمجاهدات الشاقةِ إِنَّمَا عملوا عليها، ولم يظفر أكثرُهم بتبديلِها، لكن النفس اشتغلَت بِتلك الرَّياضات عن ظهورِ سلطانِها فإذَا جاءَ سلطانُ تلكَ الأخلاقِ وبرزَ كسرُ جيوشِ الرياضةِ وشتتها استَولى عَلَى مملكةِ الطَّبعِ.

وهَذَا فصلٌ يصلُ به السالكُ مع تلكَ الأخلاقِ ولاَ يحتاجُ إِلَى علاجِها وإزالتِها ويكون سيرُه أقوَى وأجلَّ وأسرعَ من سيرِ العاملِ عَلَى إزالتِها.

ونقدَّمُ قبلَ هَذَا مثلاً نَضْرِبُهُ مطابقًا لِما نُرِيدُهُ وهو: نَهرٌ جَارٍ فِي صببه ومنحدرِه، ومنتَه إِلَى تغريقِ أرضٍ وعمران ودورٍ، وأصحابُها يعلمون أَنَّهُ لا ينتهي حَتَّى يخربَ دورهم ويتلفَ أراضيهم وأموالهم فانقسموا ثلاثَ فرق.

فرقةٌ صَرَفَتْ قُوَاهَا وقوى أعمالِها إِلَى سكرِه وحبسِه وإيقافِه، فلا تصنعُ هَذِه الفرقةُ كبيرَ أمرٍ فإنَّه يوشكُ أن يجتمعَ ثُمَّ يحملُ عَلَى السُّكرِ فيكونُ إفسادُهُ وتخريبُه أعظمَ.

وفرقةٌ رَأت هَذِهِ الحالةَ وعلمت أَنَّهُ لا يُغني عنها شيئًا فَقالت: لا خلاصَ من محذورِه إلا بقطعِه من أصلِ الينبوعِ، فرامت قطعه من أصله فتعذر عليها ذَلِكَ غاية التعذر وأبت الطبيعةُ النهريةُ عليهم ذَلِكَ أشدَّ

الإباءِ فهم دائمًا فِي قطع الينبوع وكلما سدوه من موضع نبع من موضع فاشتغل هؤلاء بشأنِ هَذَا النهرِ من الزراعات والعمارات وغرسِ الأشجارِ.

فجاءت فرقةٌ ثالثةٌ خالفت رَأي الفرقتين وعلموا أنَّهم قد ضاعَ عليهم كثيرٌ من مصالحِهم فأخذوا فِي صرف ذَلِكَ النَّهرِ عن مجراه المنتهي إِلَى العمرانِ فصرفوه إِلَى موضعٍ يَنتفعُون به، فَأنبتَ أنواعَ العشبِ والكلأ والثمارِ المختلفةِ الأصنافِ، فكانت هَذِه الفرقةُ هم أصوبُ الفرقِ فِي شأنِ هَذَا النَّهرِ.

فإذَا تبيَّنَ هَذَا المثلُ فاللهُ سُبْحَانَهُ قد اقتَضت حكمتُهُ أنْ رَكَّبَ الإنسانَ – بل وسائر الحيوانِ- عَلَى طبيعةٍ محمولةٍ عَلى قوَّتَين: غضبيةٌ وشهوانيَّةٌ وهي الإراديَّةُ، وهاتان القوَّتان هما الحاملتان لأخلاقِ النَّفسِ وصفاتِها وهما مركوزتان فِي جبلةِ كل حيوانِ فبقوةِ الشهوةِ والإرادةِ يجذبُ المنافعَ إِلَى نفسِهِ وبقوةِ الغضبِ يدفعُ المضارَ عَنها.

فإذَا عجز عن ذَلِكَ الضَّارِ أورثَه قوةَ الحقدِ، وإن أعجزَه وصولُ ما يحتاجُ إليه ورأى غيرَه مُستبدًا بِهِ أورثَه الحسدَ فإن ظفرَ به أورثتُه شدةُ شهوتِه وإرادتِه خلقَ البخلِ والشّحِ وإنْ اشتدَّ حرصُهُ وشهوتُه عَلَى الشيءِ ولم يمكنه تحصيلهُ إلا بالقوةِ الغضبيةِ، فاستعملها فيه أورثَه ذَلِكَ العدوانَ والبغي والظلمَ ومنه يتولدُ الكبرُ والفخرُ والخيلاءُ فإنَّها أخلاقٌ متولدةٌ من بَيْنَ قوتي الشهوةِ والغضبِ وتزوَّج أحدهما بصاحِبه.

فإذَا تبيَّنَ هَذَا فالنَّهرُ مثالُ هاتين القوتين وَهُوَ منصبٌ فِي جدول

الطبيعةِ ومجراها إِلَى دورِ القلبِ وعمرانِه، وحواصله يخربها ويتلفها ولابد فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه فخرَّبَ ديارَ الإيمانِ وقلعَ آثارَه وهدَمَ عمرانَه وأنبتَ موضعَها كلّ شجرة خبيثة من حنظل وضريع وشوك وزقوم، وَهُوَ الَّذِي يأكله أهل النَّار يومَ القيامةِ يومَ المعادِ.

وأمَّا النفوسُ الزكيَّةُ الفاضلةُ: فإنَّها رأت ما يؤولُ إليه أمرُ هَذَا النهرِ، فافترقوا ثلاث فرقٍ.

فأصحابُ الرياضات والمجاهدَات والخلوَات والتمرينات راموا قطعهُ من ينبوعِه فأبت عليهم ذَلِك حكمةُ الله تَعَالَى وما طبع عَلَيْهِ الجبلة البشرية ولم تنقد له الطبيعةُ، فاشتدَّ القتالُ ودامَ الحربُ وحمي الوطيسُ وصارت الحربُ دولاً وسجالاً وهؤلاءِ صرفوا قواهم إِلَى مجاهدةِ النفس عَلَى إزالةِ تلك الصفات. وفرقةٌ أعرضُوا عنها وشغلوا نفوسَهم بالأعمالِ ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها عَلَى مجرَاها، لكن لم يمكنوا نهرها من إفسادِ عمرانِهم بل اشتغلوا بتحصينِ العمرانِ وإحكامِ بنائِه وأساسِه ورأوا أن ذَلِكَ النهرَ لا بد أن يصلَ إليه، فإِذَا وصلَ وصلَ إِلَى بناءٍ محكمٍ فلم يهدمه، بل أخذَ عَنْهُ يمينًا وشمالاً فهؤلاء صرفوا قوةَ عزيمتِهم وإرادتِهم فِي العمارةِ وإحكامِ البناءِ وأولئك صرفوها في قطعِ المادةِ الفاسدةِ من أصلِها، خوفًا من هدم البناءِ، إذا تَبين هَذَا فهذه الفرقةُ الثالثةُ رأت أن هَذِه الصفات ما خُلقَت سدى وَلاَ عبثًا وأنَّها بمنزلةِ ماءٍ يُسقى به الوردُ والشوكُ والثمارُ والحطبُ وأنها صوانٌ وأصدافٌ لجواهرِ منطويةٍ عليها، وأن ما خافَ منه أولئك هو نفسُ سببِ الفلاحِ والظفرِ، فرأوا أن الكبرَ نهرٌ يُسقَى به العلوَ والفخرَ والبطرَ

والظلمَ والعدوانَ ويُسقَى به علوَ الهمةِ والأنفةِ والحميةِ والمراغمةِ لأعداءِ الله وقهرِهم والعلو عليهم، وهَذه درةٌ في صدفته فصرفوا مجراه إِلَىٰ هَذَا الغرس واستخرجوا هَذِه الدرة من صدفَتِه وأبقوه عَلَى حالِه فِي نفوسِهم، لكن استعملُوه حيثُ يكونُ استعمالُه أنفعَ، وقد رأى النَّبِيُّ ﷺ أبَا دُجانة بَيْنَ الصفين، فقالَ: «**إنَّها لمشيةٌ يبغضُهَا الله، إلا فِي مِثل هَذَا الموضعِ**» فانظر كيفَ خَلى مجرى هَذِهِ الصفةِ هَذَا الخلق يَجري فِي أحسن مواضعِه.

وفي الحديثِ الآخرَ- وأظنّه فِي المسندِ: «إنَّ من الخُيَلاءِ مَا يُحبّهَا الله وَمَا يبغضها الله، فالخيلاء الَّتِي يحبها الله: اختيالُ الرجل فِي الحرب وعند الصدقةِ».

فانظر كيفَ صارت الصفةُ المذمومةُ عبوديةً؟ وكيفَ استحالَ القاطعُ موصلاً؟

فصاحبُ الرياضات والعاملُ بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات، هيهاتَ هيهاتَ أن يوقعَه ذَلِكَ في الآفاتِ والشبهات والضلالات فإنَّ تزكيةِ النفوسِ مسلمٌ إِلَى الرسلِ وإنَّمَا بعثَهم اللهُ لهذه التزكيةِ وولاَّهُم إياهَا وجعلَها عَلَى أيديهم دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خلقًا وَلاَ إلهامًا انتهى [١].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣١١-٣١٥) نقلاً عن صلاح الأمة في علو الهمة للشيخ سيد العفاني (٥/ ٢٤٦).

مما تقدَّمَ يتبينُ لنَا أن محاولةَ اقتلاعِ الطَّبعِ البشريَّ من جذورِه محالٌ ، لأنَّه ليسَ فِي مقدورِ العبدِ فَضلاً عَلَى أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يخلق شيئًا عبثًا فالحكمةُ الإلهيةُ اقتضت وجودَ هَذِهِ الطبائعِ فِي الإنسانِ، ومن الحكمةِ جهادُ النفسِ حَتَّى يستعملَ كلُّ عبدٍ ما به من طبائعَ خبيثةٍ أو أمراضٍ مهلكةٍ استعمالاً شرعيًّا.

واذكرُ مثالاً تأكيدًا لما سبقَ بيانُه:

إنسانٌ يحبُّ كثرةَ الكلامِ ويتقنُ الحوارَ والحديثَ وقد يكونُ مع ذَلِك عِنْدَهُ قبولٌ فينجذبُ النَّاسُ لسماعِه، هَذَا الإنسانُ إذا لم ينتبه لما يقولُ حتمًا سيقعُ فِي اللغوِ فضلاً عن آفاتِ اللسانِ الأخرى من الغيبةِ والنميمةِ والكذبِ والحلفِ بغيرِ الله... وما أشبهُ ذلك، فَمن الحكمةِ أن يتعلمَ العلمَ الشَّرْعيَّ الصحيحَ وينشغلَ بالدعوةِ إِلَى دينِ الله ونفعِ المسلمين، وبهَذَا يكونُ قد استعملَ هَذِهِ النعمةَ – نعمةُ الكلامِ والقولِ- فِي كسبِ الحسنات بَدلاً من أن يستعملَها في جلبِ السيئات المهلكات.

ومثالٌ آخرُ: رجلٌ أوتي جدلاً فبدلاً من أن يجادلَ لينتصرَ لنفسِه ويتفوقَ عَلَى خصمِه ويكونُ هَذَا كلُّ همِّهِ، فإن كَانَ عاقلاً استعملَ هَذِهِ الصفةَ فِي جدالِ أعداءِ الدينِ والعصاةِ من المسلمين بالَّتِي هي أحسنُ حَتَّى يُظهِرَ محاسنَ هَذَا الدينِ ويذبَّ عن الإسلامِ وعن نبيِّنَا ﷺ شرطَ ذَلِكَ أن يكونَ عِنْدَهُ العلمُ الشَّرْعيُّ الصحيحُ والنيةُ الصالحةُ فإنْ وُفِّقَ لذَلِكَ فهَذَا خيرٌ له من الدُّنْيَا وما فِيها، قَالَ رسُولُ الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**فَوالله لأَنْ يَهْديَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خيرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرٌ**

النَّعَم[(١)]»[(٢)].

وهكذا يستطيعُ كُلُّ عبدٍ مخلصٍ صادقٍ متبرٍئٍ من حولِه وقوتِه معتمدًا عَلَى حولِ الله وقوَّتِه أن يبدلَ أمراضَ قلبِه وآفاتَ نفسِه صفات تجلبُ له الخيرَ والسعادةَ فِي الدُّنْيَا والآخرةِ والموفقُ من وَفَّقَهُ اللهُ.

(١) حمرُ النعمِ: هي الإبلُ الحمرُ، وهي أنفسُ أموالِ العرب- شرح مسلم (٨/ ١٩٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٢) ومسلم (٢٤٠٦).

العلاجُ

ما خلقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعَزَّ وَجَلَّ داءً إلا وجعلَ لَهُ دواءً فقد يصابُ العبدُ بمرضٍ أو أكثرَ من أمراضِ القلوبِ الَّتِي أوردناها فِي هَذَا البحثِ فإنْ لم يبادرْ ويسعَ ويبحثْ عن دواءٍ هلكَ فمنْ رَحمَة الله تَعَالَى أنْ جعلَ لنا أدويةً لعلاجِ أمراضِ قلوبنا منها ما تقدَّمَ في البحثِ الَّذِي سقته آنفًا وَمنهَا.

تلاوةُ القُرْآنِ بالتدبرِ والتفكرِ:

اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدعُو عبادَه فِي القُرْآن إِلَى معرفتِه وإلى عبادتِه وحدَه، وهَذَا لا يكونُ إلا بالتدُّبرِ والتفكُّرِ فِي آياتِه الكونيَّةِ والشَّرْعيَّةِ(١) الَّتِي فيها صلاحُ القلوبِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] لا ريبَ أنَّ تدبرَ القُرْآنِ من أنفعِ الأدويةِ لعلاجِ أمراضِ القلوبِ قد أخبَرَ بذَلِك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

---

(١) الآيات الكونية: كخلق السموات والأرض والجبال والبحار وغير ذلك، أما الآيات الشَّرعية: هي الخاصة بالتكليف.

قالَ العلامةُ السعديُّ في تفسيرِهَا:

القُرْآنُ شفاءٌ لِما فِي الصدورِ من أمراضِ الشهواتِ الصَادَّةِ عن الانقيادِ للشرعِ، وأمراضِ الشبهات القادحةِ فِي العلمِ اليقينيِّ، فإنَّ ما فيه من المواعظِ والترغيبِ والترهيبِ والوعدِ والوعيدِ مما يوجبُ للعبدِ الرغبةَ والرهبةَ، وإذا وُجِدَت فيه الرغبةُ فِي الخيرِ والرهبةُ من الشَّرَّ ونمتا عَلَى تكررِ ما يَردُ إليها من معاني القُرْآنِ، أوجب ذَلِك تقديمَ مرادِ الله عَلَى مرادِ النَّفسِ، وصارَ ما يُرضي الله أحبَّ إِلَى العبدِ من شهوةِ نفسِهِ.

وكذَلِكَ ما فيه من البراهين والأدلةِ الَّتِي صرفَها الله غايةَ التصريفِ وبيَّنَها أحسنَ بيانٍ مما يزيلُ الشبه القادحةَ فِي الحقَّ ويصلُ به القلبُ إِلَى أعَلَى درجاتِ اليقين، وإذا صحَّ القلبُ من مرضِه ورفلَ بأثوابِ العافيةِ تبعتْه الجوارحُ كلُّها، فإنَّها تصلحُ بصلاحِه وتفسدُ بفسادِه[1].

إذا أردتَ الانتفاعَ بالقُرْآنِ فاجمع قلبَك عند تلاوتِه وسماعِه، وألقِ سمعَك واحضر حضورَ مَن يخاطبَهُ به من تكلم به سُبْحَانَهُ منه إليه، فإنه منه لك عَلَى لسان رسوله ص، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧] فقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهَذا هو المحلُ القابلُ والمرادُ به القلبُ الحيُّ الَّذي يعقلُ عن الله كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩] أي حيَّ القلبِ، وقولُه: ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي وجهَ سمعِه وأصغى حاسةَ سمعِه إِلى ما يُقَالُ لَهُ، وهَذَا شرطُ التأثرِ بالكلامِ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٦٧).

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شَاهِدُ القلبِ حاضرٌ غير غائبٍ.

قالَ ابنُ قتيبةَ: استمع كتاب الله هو شاهد القلب والفهم ليس بغافل وَلاَ ساهٍ وَهُوَ إشارةٌ إِلَى المانعِ من حصولِ التأثيرِ وَهُوَ سهوُ القلبِ وغيبتُه عن تعقُّلِ ما يُقَالُ له النظر فيه وتأمله[١].

فلا شيءَ أنفعُ للقلبِ من قراءةِ القُرْآنِ بالتدبُّرِ والتفكُّرِ فإنه جامعٌ لجميعِ منازلِ السائرينَ، وأحوالِ العاملينِ ومقاماتِ العارفينَ وَهُوَ الَّذِي يورثُ المحبةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكلَ والرضَا والتفويضَ والشكرَ والصبرَ وسائرَ الأحوالِ الَّتِي بها حياةُ القلبِ وكمالُه.

وكذَلِكَ يزجرُ عن جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومةِ الَّتِي بها فسادُ القلبِ وهلاكُه، فلو علمَ النَّاسُ ما فِي قراءةِ القُرْآنِ بالتدبرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ مَا سواها.

فإذَا قرأَه بتفكُّرٍ حَتَّى مرَّ بآيةٍ وَهُوَ محتاجٌ إليها فِي شفاءِ قلبه، كرَّرَهَا ولو مائةَ مرةٍ ولو ليلة، فقراءةُ آيةٍ بتفكرٍ وتفهمٍ خيرٌ من قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وتفهمٍ، وأنفعُ للقلبِ وأَدعَى إِلَى حصولِ الإيمانِ وذوقِ حلاوةِ القُرْآنِ وهذه كانت عادةُ السَّلفِ يرددُ أحدُهم الآيةَ إِلَى الصباحِ[٢].

التأسِّي برسولِ الله ﷺ والاقتداءُ بأهلِ العلمِ والفضلِ والخيرِ والصلاحِ[٣]:

فذَلِكَ يورثُ تقاربًا بَيْنَ قلبِ الشخصِ وقلبِ أهلِ الخيرِ والفضلِ

---

(١) الفوائد لابن القيم (٧) باختصار.

(٢) مفتاحُ دار السعادة لابن القيم (١/ ١٨٧) وفي ظلال المحبة.

(٣) شفاء القلوب لشيخنا حفظه الله (١٠٤) وما بعدها.

والعلمِ والصلاحِ.

وابتداءً فإنَّ الله أمرَنا بالتأسِّي بنبيِّه ﷺ فقَالَ الله سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥] وَنَهى الله عن التَّشَبُّه بأهلِ الكفرِ وعن سلوكِ سبيلِهم قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٩].

فالاتفاقُ فِي الظَّاهرِ يجلبُ اتفاقًا فِي الباطنِ- فِي الغالب- وكذَلِكَ فالاختلافُ فِي الظاهرِ يجرُّ إِلَى اختلافِ القلوبِ ففي الصحيحِ من حديثِ أبِي مسعودٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يمسح مناكبنا فِي الصلاة ويقول: «**استَوُوا وَلا تَخْتَلِفُوا فتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ**»[1].

وفِي الصحيحين[2] من حديث النعمانِ بن بشير رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بَيْنَ وُجُوهِكُمْ**»[3].

ولذَلِكَ تَرى مثلاً المتشابهين فِي زيِّهم ولباسِهم وسمتهم أقربَ إِلَى بعضِهم البعضَ فترى من يلبسُ الثوبَ الأبيضَ يحنُّ إِلَى من يلبسُ الثوبَ الأبيضَ ومن تَرتدي النقابَ تحنُّ إِلَى من ترتدي النقابَ إذَا رَأتهَا فِي طريقٍ،

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٧) ومسلم (٤٣٦).

(٣) قال شيخنا حفظه الله: إن معناه والله أعلم: يوقعُ بينكم العداوةَ والبغضاءَ واختلافَ القلوبِ.

وكذَلِكَ إذا كَانَ شخصٌ ملتحيًا تجده يحنُّ إذا وجدَ شخصًا متلحيًا مثلَه وَيَقبَلُ عَلَيْهِ، وهكذا فِي غالبِ الأحوالِ، فمن تشبَّهَ برسُولِ الله ﷺ وبأهلِ الصَّلاحِ نَجِد قلبَه مُتَّجِهًا إِلَيْهِم، وكذَلِكَ من تَسمى وتَشبَّه بأَهلِ الشَّرَّ والفسادِ.

فحَتَّى يسلم لك قلبُكَ، فليكن تشبهُك برسولِ الله ﷺ ما دمتَ تستطيعُ ذَلِك فِي سمتِكَ وفي لباسِكَ وفي عبادتِكَ وفي صبرِك وحلمِكَ وفي سائرِ أحوالِكَ فإن ذَلِكَ يورثك تقاربًا من نبيَّكَ محمدٍ ﷺ وتقاربًا من أهلِ الخيرِ والصلاحِ والفضلِ والعفافِ، وما التوفيقُ إلا بالله.

تدبرُ أحاديثِ رسولِ الله ﷺ

النظرُ في سنةِ رسولِ الله ﷺ وتدبّرهَا من أنفعِ الأدويةِ لعلاجِ أمراضِ القلوبِ وخاصةً الأحاديثُ الَّتِي تحثُّ العبدَ عَلَى الزهدِ فِي الدُّنْيَا الفانيةِ وأيضًا أحاديثُ الترغيبِ والترهيبِ الترغيبُ فِي الجنةِ وما أعدَّ الله فيها لعبادِه الصالحين، والترهيبُ من النَّارِ وما فيها من العذابِ الأليمِ المهينِ، ونذكر هنا بعضًا منها عَسى أن ينتفعَ بها المؤمنين والمؤمنات:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[1]. وَكان ابن عمر يقولُ: إذا أمسيتَ فلا تنتظرُ الصباحَ وإذا أصبحتَ فلا تنتظرُ المساءَ وخذ من صحتِك لمرضِك ومن حياتِك لموتِك.

وَعنَ أنسٍ رضي الله عنه عَن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٣).

الآخِرَهْ»(١).

وَعَن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه قَالَ: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»(٢).

وَعَن سهلِ بن سعدٍ رضي الله عنه قَالَ: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(٣).

عَنْ أَبِي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه أنَّ ناسًا من الأنصارِ سألُوا رَسُولَ الله ﷺ فلم يسألُه أحدٌ منهم إلا أعطاه حَتَّى نفدَ ما عنده، فقالَ لهم حين نفدَ كلُّ شيءٍ أنفقَ بيديهِ: «**مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لاَ أَدَّخِرُهُ عَنْكُمْ وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ**»(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»(٥).

وَقَالَ ﷺ: «**أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خلاَ اللهَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦) ومسلم (١٨٠٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٥) ومسلم (١٨٨١) مختصرًا.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣).
(٥) أخرجه البخاري (٦٤٨٥).

باطلٌ»[١].

وَعَن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانت ناقةٌ لرسولِ الله تُسمَّى العضباءَ وكانت لا تسبقُ فجاءَ أعرابيٌّ عَلَى قَعُودٍ له فسبقهَا فاشتدَّ ذَلِكَ عَلَى المسلمين، وَقَالُوا: سَبقت العضباء؟ فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ حَقًّا عَلَى اللهِ أَلاَّ يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إِلاَّ وَضَعَه**»[٢].

وَعَنْ أنسِ بن مالكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**»[٣].

وَعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا**» قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فقلت: يا رسولَ الله الرجالُ والنساءُ ينظرُ بعضُهم إِلَى بعضٍ؟ فقالَ: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُم ذَاكِ**»[٤].

وَقَالَ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَسَيُكَلِّمُهُ الله يَوْمَ الْقِيامَةِ لَيْسَ بَيْنَ الله وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلاَ يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[٥] وفي رواية: «**اتَّقُوا**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٩).
(٢) البخاري (٦٥٠١).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥١٤) ومسلم (٢٩٦٠).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩).
(٥) البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦).

النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمةٍ طَيِّبَةٍ»(١).

وَعَن ابنِ عمرَ رَضِي اللهُ عَنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ جِيءَ بِالموْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنادٍ: يَا أَهْلَ الجنَّةِ لاَ مَوْتَ وَيا أَهْلَ النَّارِ لا مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ وَيَزْدادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»(٢).

وَعَنْ أَبِي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله تبَارَكَ وَتعَالَى يَقوُلُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبيْكَ ربَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ فيَقُولُونَ وَمَا لَنا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتنَا مَا لَمْ تُعْطِ أحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فيقُول: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبدًا»(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ مَنْكبِي الْكَافِرِ مَسِيرةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ للرَّاكِبِ المُسْرِعِ»(٤).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: أصيبَ حارثةٌ يومَ بدرٍ وَهُوَ غلامٌ، فجاءت أمُّهُ إِلَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالتْ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ

---

(١) البخاري (٦٥٤٠) ومسلم (٦٧-١٠١٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٥١) ومسلم (٢٨٥٢).

مِنِّي، فَإِنْ يَكُ فِي الجَنَّةِ، أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ. فَقَالَ: «**وَيْحَكِ، أَوَ هَبِلْتِ، أَوَ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ**»[(١)].

وعن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا**»[(٢)].

فَاعتَبِرُوا يَا أُولِي الأبصارِ والعقولِ، أي عاقل يتركُ هَذَا النعيمَ المقيمَ ويعرِضُ نفسَهُ إِلَى العذابِ الأليمِ فالشهواتُ تَمضي وَتَبقي التّبعات...

فاحذر أعداءَك الثلاثَة: النفسُ والشَّيْطَانُ والدُّنْيَا جميعُهم يتربَّصون بِكَ ليهلكُوك.

ذكرُ اللهِ تَباركَ وتَعَالَى:

لا شكَّ أنَّ القُرْآنَ أفضلُ أنواعِ الذكرِ إذ به تطمئنُ القلوبُ وبه يزدادُ الإيمانُ ويحصلُ اليقينُ المنافي للشَّكَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ[(٣)] أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وقد تقدَّم الكلامُ عن أهميةِ تلاوة القُرْآنِ وتدبّره فهو أقوَى علاجٍ لأمراضِ القلوبِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٥٢) ومسلم (٢٨٢٧).

(٣) قَالَ مجاهد وقتادة وغيرهما: بالقرآن تفسير القرطبي (٩/٣٢٣) وثم أقوال آخر لمعنى الذكر والذي ليس فيه شك أن القرآن يسمى ذكر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قَالَ القرطبي: أي ديني وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه أحكام القرآن (١١/٢٧٥).

وما نحن بصددِه هو الذكرُ المقصودُ به التسبيحُ والتحميدُ والتهليلُ والتكبيرُ ذِكْرُ العبدِ رَبَّهُ عَلَى كل حالٍ وفي كلِّ وقتٍ قَالَ تَعَالَى مثنيًا عَلى الذاكرين والذاكرات: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ...﴾ إلى قوله ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] .

وأمرنا الله تَعَالَى بكثرة الذكر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يذكر الله عَلَى كل أحيانه[١].

وقد جاءَ فِي السنةِ المطهرةِ أحاديثُ كثيرةٌ جدًّا تحثُّ العبدَ وترغِّبُه فِي كثيرةِ ذكرِ الله تَبارِكَ وتَعَالَى نذكُر مِنهَا:

«يَقُولُ الله تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلا ذَكَرْتُهُ فِي مَلا خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٥) وغيره.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يسير فِي طريق مكة، فمر عَلَى جبل يُقَال له جمدان فقال: «**سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ المفَرَّدُونَ**» قَالُوا: وَمَا المفَرَّدُونَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»(٢).

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ حَفَّتْهُمْ الملائِكَةُ، وَغشيتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَنزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَه**»(٣).

فالسكينةُ والرحمةُ تتنزلانِ عندَ ذكرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى وعَزَّ وَجَلَّ، لا سيما إذَا جمعَ العبدُ قلبَه مع لسانِه عند الذكرِ، فبالذكرِ يُحَرِّزُ العبد نفسَهُ من الشَّيْطَانِ، فهو العدوْ الأولُ لابن آدمَ، فهو يدخلُ عَلَيْهِ من بابِ الغفلةِ فإذَا دخلَ عَلَيْهِ ظَفَرَ به وأفسدَ عَلَيْهِ قلبَه فإنَّ ذكرَ الله مع حضورِ القلبِ خنسٌ وبعدٌ، فَيُحْدِثُ لَهُ من صفاءِ القلبِ مَا لم يحدث لغيرِه.

الأيمانُ بقدرِ اللهِ تَعَالَى والرضَا بقضائه:

اعلم أنَّ الإيمانَ بقدرِ الله والرِّضا بقضائِه من أسبابِ شفاءِ القلبِ، فضلاً عن ما يحصلُ للعبدِ من السعادةِ فِي معاشِه، ومعادِه، إذ إن الإيمانَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٤) ومسلم (٢٦٩٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) والترمذي (٣٣٧٨) وابن ماجه (٣٧٩١).

بقدر الله والرضَا بقضائِه يورثُ طمأنينةَ القلبِ وانشراحِ الصدرِ، فلا تجد عبدًا مؤمنًا بالقضاءِ والقدرِ راضيًا بهما ثُمَّ تراه حزينًا مهمومًا وَلاَ ساخطًا حاسدًا للآخرين وَلاَ متكبرًا متعاليًا عَلَى الخلق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قِيلَ: يُصدَّقُ ويَعلمُ أَنَّهُ لا يصيبَه مصيبة إلا بإذن الله ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للصَّبر والرَّضا وقِيْلَ يُثبتَهُ عَلَى الإيمانِ.

وَقَالَ ابنُ عباسٍ: هو أنْ يجعلَ الله فِي قلبِه اليقينَ، ليعلمَ أنَّ ما أصابَهُ لم يكن ليخطئَه، وأنَّ ما أخطأَهُ لم يكنْ ليصيبَهُ[1] وَثَمَّ أقوالٌ أخرُ وكلُّها متقاربةٌ فِي المعنى.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[2] والآياتُ والأحاديثُ فِي هَذا البابِ كثيرةٌ لأهميةِ هَذَا الركنِ من أركانِ الإيمانِ.

إنَّ تَدَبُّرَ كلامِ الله تَعَالَى وكلامِ رسولِه ﷺ فِي القدرِ يُفضي بالعبدِ إِلَى الإيمانِ والرضَا بقضاءِ الله وقدرِه فإذا تقررَ ذَلِكَ لم يحزن عَلَى فواتِ حظٍّ من حظوظِ الدُّنيَا ولن يحزن عَلَى ضررٍ لحقَ بِه فِي مالِه أو نفسِه أو ولدِه إلا بالقدرِ الَّذِي لا يخرجَهُ عن حدَّ الرضَا بالقضاءِ والقدرِ فقد حزنَ رسولُ الله ﷺ وبَكي عَلَى فقدِ ولدِه إبراهيمَ ولم يخرجه ذَلِكَ عن كمالِ الرضَا.

(١) أحكام القرآن للقرطبي (١٨/١٣٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٥).

فقالَ ﷺ: «**تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَي رَبُّنَا وَالله يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحزُونُونَ**»[١] فكَما أنَّ الإيمانَ بالقدرِ حمايةٌ للقلبِ من السخطِ والحزَنِ والهمَّ والنكدِ كذَلِكَ فهو حمايةٌ للقلبِ من الحسدِ والحقدِ والغلِ والشماتَةِ وما أشبهُ ذَلِك من الأمراضِ.

وكذَلِكَ إذا أنعمَ الله عَلَى عبدِه بصنوفِ النَّعَم من المالِ والأولادِ والجاهِ والرياسةِ وجعلَهُ عَزيزًا فِي قومِه، إذا كَان العبدُ مُؤمنًا بالقدرِ وعِنْدَهُ فهمٌ عن الله، دفعَهُ ذَلِكَ إِلَى الشكرِ لعلمِهِ علمَ اليقينِ أن كلَّ ما عِنْدَهُ محضُ فضلٍ من الله ولو شاءَ الله أن يمنعَ عَنْهُ النعمَ فلن يستطيعَ حفظَ نعمةٍ واحدةٍ بكل ما أوتي من أسبابٍ، وفي الحديثِ: «**اللهُمَّ لاَ مَانِعَ لِما أَعْطَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»[٢].

فإِذَا أيقنَ العبدُ بذَلِك طَهُرَ قلبُهُ من مرضِ الكبرِ والعجبِ والغرورِ والاستعلاء واحتقار الآخرينَ، وتركَ الفخرَ والخيلاءَ لعلمِه أنَّهُ عبدٌ مملوكٌ وكلَّ مَا بِه من نعمةٍ فمن الله تَعَالَى، ولهذَا نجدُ العبدَ المؤمنَ يتقلَّبُ بَيْنَ الصبرِ والشكرِ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٥).
(٢) أخرجه البخاري (٨٤٤) ومسلم (٥٩٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

حصولُ النعمةِ للعبدِ ليسَ دَليلاً عَلَى رضا الله عنه والمنعُ ليسَ دَليلاً عَلَى سخطِ اللهِ عليهِ

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] فقد عَلَقَ الإنسانُ- الَّذِي لا يعلم شيء عن الله- إكرامَ الله لهُ أو إهانَتَه عَلَى العطاءِ أو المنعِ فقالَ سُبْحانِهُ ﴿كَلَّا﴾ أي ليسَ الأمرُ كذَلِكَ فلا يُخفى عَلَى أحدٍ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى قد أنعمَ عَلَى الكفارِ بصنوفٍ من النعمِ، قد لا تكونُ عند كثيرٍ من عبادِه الموحدين فقد أعطاهُم المالَ والجمالَ والحضارةَ وغير ذَلِكَ من نعيمِ الدُّنْيَا وهم أبغضُ الخلقِ إليه. وقد يمنعُ عبدَه المؤمنَ من النعمِ وَهُوَ من أحبِّ النَّاسِ إليه، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تخافُونَ عَلَيْهِ**»[١] وقد قدّمنا جملةً من الأحاديثِ الدالةِ عَلَى أنَّ أشدّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ وأن الرجلَ يبتلى عَلَى قدرِ دينِه، فمن تدبّرَ قولَ الله تَعَالَى وقولَ رسولِه فِي هَذِهِ المسألةِ تبيَّنَ له الصوابُ وزالَ اللبسُ الَّذِي قد يكونُ عند كثيرٍ من النَّاسِ.

كيف نؤمنُ ونرضى بقضاءِ الله تَعَالَى وقدَرِه؟

ابتداءً لابدَّ أن يكونَ عند العبدِ الموحدِ يقينٌ لا شكَّ فيه بكلِّ ما جاءَ فِي كتابِ الله تَعَالَى وكل ما أخبرنَا به رسولُه ﷺ فمن الأحاديثِ الَّتِي يَنبَغي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/٤٢٧).

للعبدِ أن يتدبرهَا ويعيَها جيدًا الحديثُ القدسيُّ الَّذِي أخرجَهُ الإمامُ مسلمٌ بسندِهِ عَنْ أَبِي ذرٍّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ فيما يروي عن الله تباركَ وتَعَالَى أنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المخْيَطُ [١] إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ الله وَمَنْ وَجدَ غَيْرَ ذَلِك، فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ»[٢].

الشاهدُ من الحديثِ: حصولُ اليقينِ للعبدِ بأنَّ الله تَعَالَى مالكُ الملكِ يتصرفُ فِي ملكِه بأمرِه وبعلمِه كَمَا يشاءُ، لا يعجزهُ شيءٌ فِي السَّموات وَلاَ

(١) المخيط: هو الإبرة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

فِي الأرضِ، فلو أَعطَى الأولين والآخرين ما نقصَ ذَلِكَ فِي ملكِه شيئًا، وإذا منعَ الأولين والآخرين ما زادَ ذَلِكَ فِي ملكِه شَيئًا، فقد يقولُ قائلٌ : إذَا كَانَ الأمرُ كذَلِكَ إذًا لماذا حرمنِي الأولاد ويقول الثاني لماذا ابتلاني بالفقر والمرَض ويقول ثالث لماذا سلط عليَّ أعداءه كَما يحدث لكثير من المسلمين فِي شتى بقاع الأرض لماذا فعل بي كذا وكذا، فقد يقف العبد حيران لا يكاد يجد إجابة عن مثل هَذِه التساؤلات، وذَلِكَ لأنَّه لم يعرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه وصفاته.

الله تباركَ وتَعَالَى حكيمٌ عليمٌ خبيرٌ حكيمٌ: يضعُ الشيءَ فِي محلِهِ الَّذِي لا يصلحُ أن يكونَ فِي غيرِه عليمٌ: يعلمُ السرَّ وأخفَى، خبير: بحالِ عبدِه وما يحتاجُ إليه، يعلمُ ما يصلِحُهُ وما يفسدُهُ فالعبدُ الَّذِي ابتُلِي بالفقرِ لابدَّ أن يعلمَ أنَّ الفقرَ هو دواؤُه ولو أعطاهُ الله المالَ ربَّما كَانَ ذَلِك سببًا فِي فسادِه فالمريضُ الذَّي لا يُرجى برؤُه ربَّما كَان فِي حالِ مرضِهِ فِي قربٍ من الله تعَالَى، لأنَّ المريضَ منكسرٌ ذليلٌ ملتجأ إِلَى ربَّه وربما أورثَه هَذَا الذل والانكسارُ درجةً فِي الجنةِ لا يصل إليها بعمل فيكون المرَضُ خيرًا له من العافيةِ، وهكذا ينبغي للعاقلِ أن ينظرَ إِلَى الابتلاءِ مِن هَذَا الوجهِ فيحصلُ لَهُ من الإيمانِ والرضَا بالقدرِ ما لا يحصلُ لغيرِه.

هَذَا وقد تظهر للعبدِ الحكمةُ من الابتلاءِ وقد لا تظهرُ، فصاحبُ البصيرةِ يستسلمُ استسلامًا كَاملاً لقدرِ الله لعلمِه علمَ اليقينِ الَّذِي لا شكَّ فيه أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أفعالُه كلُّها كمالٌ ليس فيها نقصٌ بأيِّ وجهٍ من الوجوه وذَلِكَ لأنَّ أفعالَه صادرةٌ عن صفاتِه، وصفاته كلها كمالٌ فكذَلِكَ

أفعاله.. فتأمل هَذَا المعنى جيدًا وَلاَ تكن من الغافلين[١] انتهى.

فإن قِيْلَ: فكيف يجتمعُ الرضَا بالقضاءِ بالمصائبِ مع شدةِ الكراهةِ والنفرةِ منها؟؟

وكيف يُكَلَّفُ العبدُ أن يَرضى بِما هو مؤلمٌ لهُ، والألمُ يقتَضِي الكراهةَ والبغضَ المضادَ للرضَا، واجتماعُ الضدين محالٌ؟ قِيْلَ: الشيءُ قد يكونَ محبوبًا مرضيًا من جهةٍ، ومكروهًا من جهةٍ أُخرى كشربِ الدواءِ النافعِ الكريه، فإنَّ المريضَ يَرَى، بِه مع شدةِ كراهتِه لهُ، وكصومِ اليومِ الشديدِ الحرِّ، فإنَّ الصائمَ يرضى بَه مع شدةِ كراهتِه له، وكالجهادِ للأعداءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالمجاهدُ المخلصُ يعلمُ أنَّ القتالَ خيرٌ له فَرضِي بِه، وَهُوَ يكرهُه لما فيه من التعريضِ لإتلافِ النَّفسِ وألمها ومفارقةِ المحبوب، ومتى قَوِي الرضَا بالشيءِ وتمكَّنَ انقلبت كراهتُه محبةً وإن لم يخلُ من الألمِ فالألمُ بالشيءِ لا ينافي الرضَا بِه، وكراهتُه من وجهِ لا يُنَافِي محبتَه وإرادَتَه والرضَا. به من وجهِ آخر[٢].

---

(١) تقدَّم بيانُ ثوابِ الصَّبر على الابتلاءِ والرضَا بالقضاءِ في غيرِ موضعٍ في الكتاب.
(٢) شفاءُ العليل لابن القيم (٥٩٦، ٥٩٧).

الدعاءُ وأهميتُه لعلاج أمراضِ القلوبِ

الدعاءُ من أفضلِ أنواع العبادات الَّتِي يتقربُ العبدُ بها إِلَى ربَّهِ فالعبدُ يثابُ عَلَى الدعاءِ سواء أُستجيبَ لدعائِه أم لم يستجيب.

ذَلِك لأنَّ الدعاءَ عبادةٌ، قَالَ رَسُولُ الله ص: «الدعاءُ هو العبادة»[١] ثُمَّ قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فالعبدُ الموحدُ حقًّا لا تكونُ رغبتُه ورهبتُه إلا لله وَلا يطلبُ حاجتَه إلا ممن بيدِه الخيرُ كلُّه وإليه يرجعُ الأمرُ كلُّه فهو الَّذِي يملكُ خزائنَ السموات والأرض بل عِنْدَهُ خزائن كلِّ شيءٍ، قَالَ تباركَ وتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] وَقَالَ: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا﴾ [الكهف: ١٤].

وانطلاقًا من هَذِهِ النصوصِ وغيرِها كَانَ عَلَى العبدِ العاقلِ أن يسألَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صلاحَ قلبِه وطهارتِه من أمراضِ الشهواتِ والشبهات بل عَلَيْهِ أن يسألَه فِي كلِّ حاجةٍ لَهُ من حوائجِ الدُّنْيَا والآخرةِ.

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٣٣٧٢) ومسند الإمام أحمد (٤/ ٢٧٢) وغيرهما

التضرعُ مع حضورِ القلبِ عند الدعاء

قَالَ تعَالَى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

﴿تَضَرُّعٗا﴾: أي إلحاحًا فِي المسألةِ ودؤوبًا فِي العبادةِ ﴿وَخُفۡيَةً﴾ أي: لا جَهرًا وعلانيةً من الرِّيَاء بل خفيةً وإخلاصًا لله تَعَالَى (١).

اعلم أنَّ السيفَ بضاربِه، وكذَلِكَ الدعاءَ بداعيهِ، فالسيفُ الواحدُ قد يقعُ عَلَى جذعِ شجرةٍ فيقطعه لقوةِ ضاربِه، ونفسُ السيفِ قد يقعُ عَلَى عصا فلا يُؤثرُ فيها لضعفِ ضاربِه، وكذا الدعاءُ إذا خرجَ من عبدٍ صادقٍ مخلصٍ لله تعَالَى مع جمعِ قلبِه عَلَى الله فِي الدعاء فيستجيب له لأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة (٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾.

وَقَال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦] ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

أوقاتُ إجابةِ الدعاءِ:

ينبغي للعبدِ الفطنِ أن يكونَ عَلَى درايةٍ بأوقاتِ إجابةِ الدعاءِ الَّتِي علمها رسولُ الله ﷺ أمَّتَه وحثَّهُم عَلَى الدعاءِ فِيهَا فليتحرَ هَذِهِ الأوقات وليجتهد فِي الدعاءِ فيها فقمن أن يستجاب له ومن هَذِهِ الأوقات:

---

(١) تفسير السعدي (٢٩١).

(٢) وقد لا يستجاب الدعاء لأسباب سنذكرها قريبًا بإذن الله تَعَالَى.

الثلثُ الأخيرُ من الليلِ:

دليلُ ذَلِكَ قولُ رسولِ الله ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَك وتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**[١] **حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ الليْلِ الآخِرُ فيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَه وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ وَمَنْ يَسْتَغفِرُنِي فَأغْفِرَ لَهُ** »[٢]، وَقد جاءَت السُّنَّةُ بأحاديث كثيرةٍ ترغَّبُ فِي قيامِ الليلِ وفضلِ الدُّعاءِ فيهِ.

---

(١) أجمع السَّلف على ثبوتِ النزولِ لله، فيجب إثباتُه له من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ وَهُوَ نزولُ يليقُ بالله- لمعة الاعتقاد للعلامة ابن قدامة المقدسي بشرح ابن العثيمين الله سبحانَه وتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فصفاتُ الله فوق ما يتصور، ولذا أخفى اللهُ سبحانه وتَعَالَى كيفية صفاته عن عبادِه رحمةً بهم وبعقولهم القاصرةِ فألزم منهج السَّلف في باب الصفات بل وفي الدين كله، فالخيرُ كلُّه في اتباعِ النبيِّ ﷺ وأصحابِه والتابعين لهم بإحسانٍ والشرُّ كلُّه في الابتداعِ.

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤) ومسلم (٧٥٨).

الدعاءُ عقب الأذان

عَن عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّهُ سمعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ المؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لِي الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله وَأَرْجُوا أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَن سَأَلَ لِي الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» (١).

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوسِيلَةَ وَالْفضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْم الْقيَامة» (٢).

الدعاءُ بَيْنَ الأذانِ والإقامةِ:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الدَّعْوَةُ لاَ تُرَدُّ بَيْنَ الأذَانِ وَالإقَامَةِ فَادْعُوا» (٣).

الدعاءُ حين تقامُ الصلاةُ:

دَليلُ ذَلِكَ قولُ رَسُولِ الله ﷺ: «سَاعَتَانِ لاَ تُردُّ عَلَى داعٍ دَعْوَتُهُ حِيْنَ تُقَامُ الصَّلاةُ وَفِي الصَّفِ فِي سَبِيلِ الله» (٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣) والنسائي (٦٧٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٤).
(٣) أخرجه أحمد (٣/٢٢٦)، وأبو داود (٥٢١)، والترمذي (٢١٢).
(٤) صحيح سنن الترمذي وابن حبان (٢٩٧) نقلاً من كتاب فقه الدعاء لشيخنا – حفظه الله-.

الدعاءُ في السجودِ:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيه الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاء فَقَمِنٌ [١] أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ» [٢].

وَقَالَ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» [٣].

الدعاءُ يومَ الجمعةِ في ساعةِ الإجابة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ذكرَ يومَ الجمعةِ فقالَ: «فِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ الله شَيئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» [٤].

وَعَن أَبِي بردة بن أبي هُرَيْرَةَ: أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجُمُعَةِ لسَاعَة، لاَ يُوافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ الله فِيهَا خَيْرًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَهِيَ بَعْدَ الْعَصْرِ» [٥].

وَعَنْ أَبِي مُوسى الأشعري قَالَ: قَالَ لِي عبدُ الله بن عمر: أسمعت أباكَ يحدثُ عن رَسُولِ الله ﷺ في شأنِ ساعةِ الجمعةِ؟ قالَ: قلتُ: نعم، سمعتُه يقولُ: سمعتُ رسُولَ الله يقولُ: «هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلاةُ» [٦].

---

(١) قمن: حقيقٌ وجديرٌ شرح مسلم (٢/٤٣٧).
(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢).
(٤) أخرجه البخاري (٩٣٥) ومسلم (٨٥٢).
(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٠٦١).
(٦) أخرجه مسلم (٨٥٣) وأبو عوانة (٢٥٥١) وأبو داود (١٠٤٩).

اختلفَ العلماءُ فِي تحديدِ ساعةِ الإجابةِ يومَ الجمعةِ.

قالَ ابنُ عبدِ البرِ: والَّذِي يَنبغِي لكلِّ مسلمٍ الاجتهادُ فِي الدعاءِ للدين والدُّنيَا فِي الوقتين المذكورين رجاءَ الإجابةِ فإنَّه لا يخيبُ إن شاءَ الله[١].

دعاءُ من تعارَّ بالليلِ:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ تَعَارَّ**[٢] **مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الملْكُ، وَلَهُ الحَمدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ الحمدُ لله، وَسُبْحَانَ الله وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بالله ثُمَّ قَال: اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي –أَوْ دَعَا– اسْتُجيبَ فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلاتُهُ**»[٣].

الدعاءُ فِي ليلةِ القدرِ:

عَن عائشةَ رَضيَ اللهُ عَنْهَا: قالَتْ: قلتُ يا رسولَ الله! أرأيتَ إنْ عَلمتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدرِ، مَا أقولُ فيهَا؟ قَالَ: «**قُولِي اللّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[٤].

---

(١) التمهيد (٢/ ٢٦١).

(٢) تعار: قِيلَ انتبه وقيل تكلمَ، وقيل علمَ، وقال الأكثر: التعارُ: اليقظةُ مع صوتٍ وقال ابنُ التين: ظاهرُ الحديثِ أنّ معنى تعار: استيقظَ لأنَّه قال: «من تَعارَّ فقال» فعطف القول عَلَى التعار– الفتح (٣/ ٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٤).

(٤) صحيح سنن الترمذي (٣٥١٣) وصحيح ابن ماجه (٣٨٥٠) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٧١).

دعاءُ الصائمِ قبلَ أن يفطَر:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهمْ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائمُ حِينَ يُفْطِرُ وَدَعْوَةُ المظْلُومِ الله يَرْفَعُهَا دُونَ الغَمَامِ يَوْمَ القِيامةِ وَتُفَتَّحُ لها أَبْوابُ السَّمَاءِ**»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ثَلاثُ دَعْواتٍ لا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ وَدَعْوَةُ الصَّائِم وَدَعوَةُ المسَافِر**»[(٢)].

فدعاء الصائم مستجاب مطلقًا وليس كَما يعتقد كثير من النَّاس أن وقت إجابة دعاء الصائم قبل الإفطار مباشرة، فالأحاديث تدل عَلى غير ذلك، فله أن يدعو ما بَيْنَ الفجر إِلَى المغرب فِي أي ساعة يشاء.

دعاءُ يومَ عرفةَ:

قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يوم عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلا الله وَحدَهُ لا شَريكَ لهُ، لَه الملكُ وَلَه الحمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ**»[(٣)].

من آداب الدعاء:

العبدُ الكيسُ الفطنُ يعلمُ أَنَّهُ ضعيفٌ فقيرٌ ذليلٌ لا يملِكُ لنفسِهِ نفعًا

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٥٢).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦٤٨٥) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٣٢).

(٣) من أراد التوسع في فقه الدعاء فليرجع إلى الكتاب النافع الماتع فقه الدعاء للعالم الجليل شيخنا مصطفى العدوي حفظه الله طبعة دار ابن كثير.

ولاَ ضرًّا وَلاَ موتًا وَلاَ حياةً وَلاَ نشورًا، فإذاَ أرادَ أن يدعُو سيِّدَهُ ومولاه وخالقَهُ ورازِقَهُ ومدبرَ أمرِه وجبَ عَلَيْهِ أن يحمدَه ويمجدَه ويثني عَلَيْه بأسمائِه الحسنَى وصفاتِه العُلَى ثُمَّ يُصلي عَلى نبيِّهِ ﷺ ثُمَّ يدعُو الله بعدَ ذَلِك بما شاءَ الله لَهُ أنْ يَدعُو.

عَن فُضَالَةَ بن عبيدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعَ رسُولُ الله ﷺ رَجلاً يدعوُ فِي صلاتِه لم يمجدْ الله تَعَالَى ولم يصلَّ عَلى النَّبِيَّ ﷺ فقَالَ رَسُولُ الله ص: «عجل هَذَا» ثُمَّ دَعَاه، فقالَ لهُ أو لغيرِه: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ وَالثَّناءِ عَلَيْه، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاء**» [(١)].

موانعُ استجابةِ الدعاءِ:

قَد يدعُو العبدُ ربَّهُ وَلاَ تستجابُ دعوتُه، وذَلِكَ لأسبابٍ كثيرةٍ ، مِنْهَا:

الدعاءُ بالإثمِ وقطيعةِ الرَّحمِ:

دليل ذَلِك قولُ رسُولِ الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ الله بِهَا إِحْدَى ثلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا** قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ؟ قَالَ: «**الله أَكْثَرُ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/١٨)، وأبو داود (٢/١٦٢)، والنسائي (٣/٤٤)، والترمذي (٩/٤٤٩) بسند حسن- كذا قَالَ شيخنا حفظه الله- في كتابه فقه الدعاء.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/١٨).

المطعم الحرام والملبس الحرام:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيُّها النَّاسُ إِنَّ الله طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلا طيِّبًا.. ثُمَّ ذَكرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالحرَامِ فأني يُستجَابُ لِذَلِكَ؟**»[١].

اليأس من رحمة الله تعالى:

من النَّاسِ من يدعُو ويكررُ الدعاءَ مرةً أو مرات، فإذَا لم يُسْتَجَبْ لَه يَئسَ وَتَرَك الدُّعاءَ فيمنعُ الخيرَ.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لأِحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ قدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَستجِبْ لي**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥-١٠١٥) والترمذي (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥).

خاتمة

صفةُ القلبِ السَّليمِ

القلبُ السَّليمُ الَّذِي يَنجُو من عذابِ الله هو القلبُ الَّذِي قد سلمَ من هَذَا وهَذَا [١] فهو القلبُ الَّذِي قد سلمَ لربَّهِ، وسلمَ لأمرِه ولم تبقَ فيه منازعةٌ لأمرِه وَلا معارضةٌ لخبرِه، فهو سليمٌ مما سوى الله وأمره، لا يريدُ إلا لله وَلا يفعلُ إلا ما أمرَه الله وحدَه، غايتُه وأمرُه وشرعهُ ووسيلتُه وطريقتُه، لا تعترضه شبهةٌ تَحُولُ بينَه وبين تصديق خبرِه، لكن لا تمرُّ عَلَيْهِ إلا وهي مجتازةٌ تعلمُ أَنَّهُ لا قرارَ لها فِيه وَلاَ شهوةَ تحولُ بينه وبين متابعةِ رضاه.

ومتى كَانَ القلبُ كذلك، فهو سليمٌ من الشكِ، وسليمٌ من البدعِ وسليمٌ من الغيَّ [٢] وسليمٌ من الباطلِ، وكلُّ الأقوالِ الَّتِي قِيْلَت فِي تفسيرِه فذَلِكَ يتضمنها.

وحقيقتُهُ: أَنَّهُ القلبُ الَّذِي قد سلمَ لعبُوديَّةِ ربِّهِ، حبًّا وخوفًا وطمعًا ورجاءً، ففني بحبِّهِ عن حبِّ ما سواه وبخوفِه عن خوفِ ما سواه، وبرجائه عن رجاءِ ما سواه، وسلمَ لأمرِه ولرسولِه تصديقًا وطاعةً كَمَا تقدَّمَ، واستسلمَ لقضائِه وقدرِه فلم يتهمه ولم ينازعْهُ ولم يتسخطْ لأقدارِه فَأَسلَمَ لربِّهِ انقيادًا وخضوعًا وذلاً وعبوديةً، وسلمَ جميعَ أحوالِه وأقوالِه وأعمالِه وأذواقِه ومواجيدِه ظاهرًا وباطنًا من مشكاةِ رسولِه، وعرض ما

---

(١) يعني: سلم من الشهوات والشبهات.

(٢) الغيَّ: الفسادُ قَالَ ابن بري: غَوٍ هو اسمُ الفاعلِ من غَوِي لا من غَوَى- اللسان (٦/٧٠٢).

جاءَ من سواهَا عليها فما وافقَهَا قَبِلَهُ وما خَالفَهَا رَدَّهُ، وَما لم يتبينْ لَهُ فيه موافقةٌ وَلاَ مخالفةٌ وقفَ أمَره وأَرجَأَهُ [١] إِلَى أن يتبينَ لَهُ وسَالَمَ أولياءَه وحزبَه المفلحين الذَّابينَ عن دينِه وسنةِ نبيِّهِ والقائمينَ بها وعادَى أعداءَه المخالفينَ لكتابِه وسنةِ نبيِّه الخارجين عَنْهَا الداعينَ إِلَى خلافها [٢].

الحمدُ لله حَمْدًا كثيرًا طيِّبًا مُبَارَكًا كَمَا يَنْبَغي لِجَلالِ وَجْهِهِ وَعَظْيمِ سُلطَانِه.

---

(١) أرجأه: أخره.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢٠٠).

الفهرس

نبذة مختصرة عن معهد الرحمة العلمي للعلوم الشرعية

- أول معه نسائي للعلوم الشرعية في مصر يعتني بتعليم المرأة بطريقة أكاديمية علمية ويصحح المعتقد والنواحي الفقهية، وذلك باتباع الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

- يقع المعهد في مجمع الرحمة الإسلامي (جمعية الرحمة لتنمية المجتمع) الذي يضم أنشطة كثيرة مثل: المعهد العلمي الأزهري للقرآن الكريم للرجال والنساء على حد سواء.

- الدراسة بمعهد العلوم الشرعية النسائي مدته عامان مقسمان إلى أربع دورات

- **تدريس الطلبة خلال الدورات الأربع:**

[الفقه- العقيدة- الحديث- علوم القرآن- تفسير القرآن- النحو].

- تقوم بالتدريس نخبة من صفوة النساء أصحاب الفكر السليم والمنهج القويم كما صح عن الرسول الأمين ﷺ وعلى رأسهن المعلمة الفاضلة أم تميم صاحبة المصنفات العلمية مثل: كتاب «الفقه الميسر» راجعه وقدم له شيخها الجليل العلامة المحدث/ مصطفى بن العدوي- حفظه الله تعالى.

- تحصل الطالبة بعد نهاية الدراسة على شهادة من مجمع الرحمة وإجازة عامة بالسند المتصل في الكتب التي درستها خلال مدة الدراسة.

- الدراسة والكتب العلمية مجانًا لمن لا تستطيع دفع المصروفات، والمصروفات رمزية للقادرة، تعود على أنشطة المجمع الخيرية والدعوية.

❋ للمتابعة والاستفسار

شئون الطلاب من **٩** حتى **٥** مساءً ماعدا يوم الجمعة.

العنوان: المبنى الملحق بمسجد الرحمة بوسط مساكن ناصر كورنيش النيل، خلف أبراج لؤلؤة النيل حي روض الفرج.

- تليفون أرضي: **٢٤٥٨٠٢٧٦**.

- تليفون محمول **٢١١٦٨٢٢٠٦٩** – المشرف العام الشيخ/ سيد مختار